كتابي
١٤
بربارا كارتلاند
الحب هو الكنز
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

الحب هو الكنز

بربارا كارتلاند

كلمة من المؤلفة

فى ١١ أغسطس سنة ١٨١٥ — وقد انقضى شهران بعد معركة «ووترلو» — أنذر رئيس الوزراء البلاد بأن الموقف الحالى كان جد سيئ.

فكان الأسطول والجيش أول من خفضت أعدادهما. فسرح ٣٠٠ ألف جندى وبحرى خلال ثمانية عشر شهراً.

ولم يمنح الرجال الذين قاتلوا من «توريس فيرداس» حتى «تولوز» معاشات أو أوسمة. فسرح أحسن جيش حظيت به إنجلترا يوماً، دون ما أسف أو عرفان.

* * *

الفصل الأول

سنة ١٨١٦

خطر الرجل على جواد أسود فخم فى درب كثيف الخضرة، متفادياً عدداً من الأغصان الميتة الساقطة من أشجار البلوط التى حفت به.

واجتاز الجسر الحجرى الذى امتد عبر البحيرة، وتجاوزه إلى فناء كاد حصاه يتوارى تحت الأعشاب والحشائش. وجذب عنان فرسه فأوقفه وجلس يتطلع إلى الحافة الصخرية المحيطة بالباب. ومكث لحظات يحملق فيها وكأنه يسترجع تاريخ أولئك الذين كان المكان يمت إليه.

ثم انتقلت عيناه لتحيطا بعدد النوافذ المزركشة بالماس، والتى كانت قد فقدت زجاجها، وقطع الأحجار التى كانت بحاجة إلى تحديد الأطباق، والزخارف الحجرية التى كانت قد تعرضت للتفتت أو التكسر.

ورأى — وهو يدير رأسه إلى أعلى ببطء — أن السياج الذى كان يحف بالسطح قد فقدت بعض أجزائها فى عدد من الأماكن.

وتنهد وهو يهبط عن جواده، وربت عنق الجواد قائلا:

«اذهب وابحث عن بعض الأعشاب يا سالامانكا، ولكن لا تمعن فى الابتعاد».

ولاح أن الجواد فهم ما قيل له ، وتحرك عبر فناء البيت فى اتجاه الأعشاب الطويلة ، التى كست ما كان يوماً أرض أعشاب مهذبة .

وراقبه صاحبه وهو يمضى ، ثم سار حول الدار وكأنه أدرك ألا أمل فى محاولة دخولها خلال الباب الأمامى ، وسار بالجانب الذى كان يقود مباشرة إلى حظائر الخيل ، وإلى مدخل الباعة إلى يسارها.

وأبصر هذه وقد كانت قد اعتلتها أكاليل زهور وشجيرات اعتيد فى الماضى السيطرة عليها بالعناية والتنسيق .

وما كان ثمة إشارة لحياة فى البداية ، فخال أن البيت مهجور ، ثم رأى — خلف الشجيرات — الباب الخلفى وقد ترك مفتوحاً على مصراعيه ، فدخل خلاله .

وكان أمامه درب رصف بأحجار طويلة ، وإلى اليمين منه كان قاعة لإعداد اللبن . فنظر ليرى إلى العرصات الرخامية التى كانت يوماً تتسع لأوعية ضخمة من القشدة ، فإذا بها خاوية . ومضى فى سيره حتى بلغ مغسل الأوعية والأطباق أولا ، ثم دلف إلى المطبخ ذى السقف المرتفع . وتذكر أيام كانت العوارض الحديدية محملة بفخاذ الخنزير المعلقة ، والأرفف مغطاة بعشرات من القدور والحلل النحاسية .

كانت مسز بريجز تطهو الطعام لأبيه ، وقد اشتهرت بشوائها الممتاز ، وتعمل على مناضد المطبخ النظيفة من أية بقعة ، وحولها

على الأقل ثلاث من خادمات المطبخ ، وعدد من المساعدين والمساعدات يعاونونها .

وظن فى البداية أن المطبخ الواسع فارغ ، كما كان معمل الألبان، ثم رأى فى أحد الأركان امرأة تجلس بشعر أبيض وهى تفصل بعض الفاصوليا عن عيدانها إلى وعاء فى حجرها .

وحملق فيها لحظة غير مصدق عينيه ، وما لبثت أن تطلعت إليه، فتحرك نحوها قائلا : « مسز بريجز !.. أجل أنت مسز بريجز ! » .

ونظرت إليه العجوز خلال عينين وجدتا أن تركيز نظراتهما صعب ، ثم صاحت : « السيد تايسون !.. كنت جديرة بأن أعرف صوتك فى أى مكان » .

وحاولت أن تنهض ، ولكن « تايسون دبل » تقدم منها ، ووضع يده على كتفها قائلا : « كلا . لا تتحركى . ما أبدع أن أراك ثانية . كنت شبه خائف من ألا أراك هنا » .

— إننى هنا يا سيد تايسون ، وإنك لمنظر للعينين المقروحتين بعد غيابك كل هذه السنين .

فقال تايسون : « ثلاث عشرة سنة إن شئت الدقة » .

وجذب أحد مقاعد المطبخ ، فجلس بجوارها ، وفى خاطره أن مسز بريجز لا بد فى الثمانينات من عمرها ، إذ كانت كبيرة السن حين غادر إنجلترا إلى الهند سنة ١٨٠٣ ، قبل ثلاث عشرة سنة .

سألته مسز بريجز تستدرجه للحديث : « كيف كنت تعيش يا سيد تايسون » .

فأجاب : « حياة لا بأس بها ، ولكنى عدت للوطن بعد أن انتهت الحرب ولم يعد للجنود نفع للجيش » .

فرفعت بصرها إليه مأخوذة وقالت : « ما أظنك تعتزم الإقامة هنا أيها السيد تايسون ؟ » .

قال : ما من مكان آخر أذهب إليه .

فهزت مسز بريجز رأسها وقالت : « لن يكون مريحاً جداً هنا . لقد بذلت وبريجز قصارى وسعنا ، ولكن بيتاً كهذا فوق طاقة عجوزين » .

— أما من أحد يساعدكما ؟

— لم تكن هناك نقود لندفع لأحد بعد وفاة والدك ياسيد تايسون . ولكنى وبريجز مكثنا لأنه ما من مكان آخر لنا نلجأ إليه .

وصغط تايسون ديل شفتيه وتساءل : « ما الذى جرى لنقود والدى ؟.. لا بد أنه خلف وراءه بعض المال » .

قالت مسز بريجز : « ما أدرانا يا سيد تايسون ؟ كل ما قيل لنا إن المنزل لك إذا قدر لك أن ترجع من تلك الحرب الرهيبة ، وبعد هذا لم يقترب أحد منا » .

فتساءل تايسون ديل : « وكيف دبرتما معيشتكما ؟ » .

— كان لدينا — أنا وبريجز — قليل من المال مدخر ، ولكنه

لم يكن كثيراً ، ووجدنا فى العام الأخير أنه من العسير أن يكفى لحاجاتنا .

فدس تايسون ديل يده فى جيبه وقال : « سأحاول أن أدبر لكما الأمر ، ولكنى أصارحكما بأن الأمر لن يكون ميسوراً ولكن ها هى ذى بضعة جنيهات ذهبية كبداية على الأقل . ولعلك تستطيعين تدبير شىء من الطعام لى الليلة » .

وحملقت مسز بريجز فى الجنيهات الذهبية وكأنها لا تطمئن إلى الاعتقاد بأنها حقيقية . وقالت وهى تطبق يدها عليها : « سأعد لك حجرة أبيك .. فمنذ الآن ستنام فيها بحكم أنك السيد . وأحمد الله أن ليس بالسقف أى عيب » .

وهمّ بأن يسأل عما تعنى بذلك ، وإذا به يتبين الجواب . فما كان من شك فى أن السقف خليق بأن يتداعى من أثر الرطوبة وقد ترك البيت للانهيار دون أن يجرى أى إصلاح طيلة هذه المدة . وأيقن دون ما سؤال أن الطابق الأعلى لن يصلح للإقامة .

ولاحظ وهو يغادر المطبخ أن الغبار والعنكبوت فى كل مكان ، وأدرك أنه ما من أحد يستحق اللوم سوى نفسه ، فما كان من شىء يمكن عمله . فلقد رجع من الهند ، وأخذ يقاتل مع جيش «ويلينجتون» فى البرتغال ، عندما وصل إليه الخطاب الذى استغرق وقتاً طويلاً لكى يصله ليخبره بأن أباه مات .

ولم يعلم إلا بعد عام بأن المحامين تبينوا أن العثور على وثيقة تعزز

زواج أبيه من المستحيل ، وكان عمه قد طالب لنفسه بمركز الوريث الافتراضى لجده اللورد « وباينجديل » .

وبعد عام : علم مصادفة ، خلال نسخة متأخرة من « المورنينج بوست » ، أن عمه – وهو الأخ الأصغر لأبيه – قد أصبح « لورد وباينجديل السادس » .

ولم يبد لذلك أهمية تذكر لدى تايسون ديل إذ ذاك ؛ فقد كان جد منهمك – كأولئك الذين كان يخدم معهم – فى قتال نابليون ، فكانت إنجلترا ومشكلات الحياة الاجتماعية فيها تلوح تافهة وجد نائية. ولم يشرع فى التساؤل عما يحدث له فى المستقبل إلا بعد أن عاد إلى إحدى الجزر منتصراً إذ هزموا أعظم طاغية عرفته أوربا .

كان يبدو بعيداً عن التصديق أن بريطانيا هزمت الوضع العسكرى لقوم كانوا فى بداية الحروب ثلاثة أضعاف قومها تقريباً ، فما كان هذا مرتقباً . ولقد علم تايسون أن الجزيرة – برغم كل تضحياتها خلال سنوات الصراع العشرين – قد ازدادت ثراء عن ذى قبل .

ولكن ، برغم أن المواصلات والصادرات ، والانتصارات فى كافة أرجاء العالم قد خلقت لإنجلترا إمبراطورية غنية واسعة الثراء فقد كان لزاماً على تايسون ديل أن يواجه الواقع الذى يواجهه عدد كبير جداً من المسئولين عن الانتصار .. واقع أنه مفلس :

فكما هى العادة بعد حرب ما ، كان لزاماً على الرجال الذين

أشيد بهم كأبطال وهم يقاتلون أن يردوا إلى الحياة المدنية ، وأغلبيتهم لا يمتلكون دانقاً ولا مورد للمعيشة .

لم يكن ثمة تعويض لا عن أنهم غامروا بأرواحهم فى الصراع فحسب ، بل ولا لأنهم فقدوا أعمالهم ومدخراتهم ، بل وزوجاتهم فى كثير من الحالات ، وبيوتهم وأسراتهم .

وما كان لتايسون ديل من يحمل همه سوى نفسه ، وكان – فى الوقت ذاته – يعجب منذ هبط فى دوفر – مصطحباً كل مقتنياته عن آخرها ، بما فى ذلك زيه العسكرى ، وجواده « سالامانكا » – عما سيكون عليه أن يفعله . ودار بخلده : « إننى أمتلك ريفيل رويال على الأقل ، وساءل نفسه بمرارة ، فى سره ، وهو يجتاز الرواق : « ريفيل رويال .. أى اللهو الملكى ! » وما كان قد بقى عنده أى شىء ملكى .

كان البيت قد آل إلى أبيه : ليس من آل « ديل » الذين طالبوا به كما طالبوا باللقب وبثروة جده لأبيه ، وإنما من والد زوجته التى كانت من آل « أوسبورن » . ولأنها أرادت أن تشعر بأن ابنها الأكبر « هوبرت » كان مستقلا عن أبيه ، فإنها نقلت إليه ملكية البيت الذى ورثته ، ولكنها لم يتح لها – لسوء الحظ – أن تمنحه نقوداً بجانب الهدية .

أما تايسون ، فكان يعرف أن أباه قد ظفر من أبيه – وهو

شاب – بمنحة مالية ولكنه لم يكن بارعاً – فى شىء – ليحولها إلى ثروة صغيرة ، فكان يفعل ما يشاء .

وزاد من سخط أسرته عليـه ، أنه بدلا من الزواج بالفتـاة التى اختـاروها له ، هرب مع ابنة الكاهن المحلى الجميلة ، وهى بعـد من السن بحيث ينبغى أن تطلب إذن أبيها للزواج . فما كان هذا مرتقباً ، لأن لورد ويلينجديل كان يمتلك مصدر العيش الذى يعتمد عليـه والدها ، ولهذا اختفى « هيوبرت نيل » و « مارى داوسن » . وبرغم البحث الكثيف عنهما – لأن اللورد كان مغضباً ولأن القس داوسن كان مأموراً بهذا – فإنهما لم يظهرا إلا بعد أن تجاوزت « مارى » العام الحادى والعشرين من عمرها . فإذ ذاك ذهبا إلى « ريفيل رويال » وعاشا معلنين أنهما زوجان وأنهما أنجبا طفلا يدعى « تايسون » أصبح فى الثانية من عمره .

وما اهتم اللورد ويلينجديل ، فقد كان عنيداً ، معتداً برأيه ، يكره المعارضة من أى نوع ، ويتوقع من أولاده أن يطيعوه وكأنهم جنود تحت قيادته . وكان ثانى أبنائه « جورج » أكثر طوعاً ومرونة بكثير ، وقد رأى أن أخاه « هيوبرت » إذا كان من الحماقة بحيث يفرط فى كل أسباب الراحة التى تتيسر فى الوطن ، وأن يتجـاهل الميزات الاجتماعية التى تتأتى عن أن يتخذ زوجة يتقبلها الملك والملكة والملتفون بحاشيتهما فى لندن ، فهذا رأيه خاصة .

هكذا تزوج « جورج » بامرأة تقبلها أبوه قبولا حسناً ، وكانت فى حد ذاتها وريثة اللقب .

وما كان لدى « ليدى أديث ديل » رغبة فى السعى امرفة ابنة قس ، ولو كانت زوجة أخى زوجها ، وكان « جورج » يغار دائماً من شقيقه الأكبر . لذلك ما كان « تايسون » ليتذكر أن عمه أو امرأته أو جـده زاروا يوماً « ريفيـل رويال » ، وكان أبوه إذا تحدث عن أقاربه ، تحدث بمرارة ساخرة . كما أن أمه كانت جد مرتاحة لأن تعيش بدونهم .

كانت تحب الرجل الذى هربت معه لتتزوجه حباً لا يتزعزع وفاؤه ، مما جعل الحيـاة فى « ريفيل رويال » سعيدة لا للزوجين وحدهما ، بل لابنهما كذلك . فمع أن « تايسون » كان وحيد أبويه ، فإنه – إذا ما استعاد المـاضى – ما كان يشعر بوحدة أو بافتقاد لزمالة أطفال آخرين . فقد كان لديه الكثير ليشغله .. خيل يركبها ، وصيد برى ، وصيد سمك من البحيرة ، وأشجار يتسلقها ، وأب كان يود أن يشركه فى كل المشكلات والإنجازات فى الضيعة الزراعية الصغيرة .

ومع ذلك ، كان – كما يتذكر – يذهب إلى المكتبة – وهو صبى – حيث يجلس مع أبيه ويتحدثان فى خطط ما كان بوسعهما إنجازه إذا تيسرت لهم السبل وإذا كان محصول العام التالى جيداً ، فمجرد أن عالمهما كان صغيراً جداً ، كان يجعلهما ميالان للمغامرات.

وانضم « تايسون » إلى الجيش لأنه أراد أن يوسع آفاقه ، وكان عسكرياً فذ الطراز لأنه كان قد تعلم كيف يعامل رجاله . فكان يتحدث إلى الذين يخدمون تحته على غرار ما كان أبوه يتحدث إلى المستخدمين لديه ؛ فكانوا مستعدين لأن يمضوا خلفه ، ومتأهبين لأن يقاتلوا أو يموتوا معه .

ولقد ظن حينما سمع بموت أبيه ، وبأن عمه جعل نفسه وريثاً للقب ، أن من السهل أن يثبت — إذا ما عاد للوطن — أن أباه وأمه كان متزوجين ، مما يجعله الخليفة الصحيح والحق لجده . وكان من المستحيل أن يعود لإنجلترا ليعنى بمسألة بدت تافهة بجانب هزيمة نابليون بونابرت ، ولكنه كتب لمحامى أبيه ، وكان رجلا عرفه طيلة عمره . فأخبره بأن يبحث عن تفصيلات ذلك الزواج ، وبأن يسأل أين أجريت المراسم .

وانقضت بضعة أشهر قبل أن يعلم أن هذا الخطاب وصل فى أعقاب موت أمه . ومع إجراء البحث فى « ريفيل رويال » لم تظهر أية وثيقة تبين أن الزواج قد عقد ، أو أن تايسون ولد فى أحضان زوجية . ورأى « تايسون ديل » أن الموقف بأسره كان غير خطير ، فلم يتحقق من جديته إلا حين قرأ فى صحيفة أن عمه أصبح « لورد ويلينجدون » السادس ، مما أتاح لعمه مانفريد — الذى طالما كرهه — قد أصبح وريث أبيه ؛ فى حين لم يجرؤ « تايسون » نفسه على أن يزعم أن اسم « ديل » كان من حقه شرعياً .

ولكم قال لنفسه : « سأجلو كل شيء عندما أصل إلى الوطن » . ولكنه وقد رأى التهدم يحيط به بعد وصوله ، أدرك أن الكفاح فى هذه القضية سيتطلب نفقات . وإذا كان عليه أن يغذى نفسه — فى الوقت ذاته — فلن يطيق نفقات محام .

ولاحت له المكتبة أصغر مما كان يتذكر ، ولكنها ظلت حجرة جميلة جداً . وكان رواء الأغلفة الجلدية للكتب قد خبا وأصبح رمادياً لتراكم الغبار ، بل إن الغبار قد أخفى الألوان التى رسم بها السقف ، كما أن كثيراً من ألواح النوافذ الزجاجية كان قد تحطم ، وسدت مكانه قطع من السجاد ، حتى أن الضوء لم يتسرب كافياً إلا حين أزاح الستائر الممزقة والبالية .

كانت قد انقضت على وفاة أبيه عشر سنوات ، وكم وقع من أحداث فى تلك المدة .

كان الطابق الأعلى من البيت كما يتوقع المرء كثيراً ، فلم يتبدل السرير ذو الأعمدة الضخمة الأربعة ، وهو فى مكانه — كما تقول الأساطير القديمة — منذ ظفر « ريفيل رويال » بسمة من الملك تشارلس الثانى ، الذى أقام فيه أياماً صاخبة ، تحيط به الحسناوات اللاتى كن يرفهن عنه .

وكان قد أخبر مضيفه — سير توماس أوسبورن — قبل رحيله بأنه إذ استمتع غاية الاستمتاع بهذا القصر ؛ فليعرف — فى المستقبل —

باسم « ريفيل رويال » ، ولقد أصبح مظهره الزرى المهلهل مجرد سخرية من العظمة والبهاء اللذين كانا له يوماً .

وواصل « تايسون دبل » المشى إذ سمع أزيز ألواح الأرضية تحت قدميه ، وهو يرى الطلاء المتهدم أو الأوراق التى كانت تكسو الجدران ، فإن أسقف الطابق الأعلى كانت تتساقط على الأرض .

وكان اجتياز الردهات شبه متعذر ، وهو يهبط السلم الذى بدا أن بعض النقوش التى أقيمت حديثاً قد سقطت أو ضاعت . وساءل نفسه مرة أخرى ، ما الذى كان بوسعه أن يفعل بالنسبة للبيت وبالنسبة له هو نفسه . كان الجيش قد علمه اعتداداً بالنفس . وكان من المستحيل أن يأمر عدداً من الرجال دون أن يكتسب سلطة لا يلبثون أن يألفوها سريعاً .

كانت الظلال قد بدأت تستطيل فى الخارج ، وقد جاء « بريجز » — الذى كان رئيساً لخدم أبيه — يتخبط إلى « الصالون » الذى بدا أكثر قدماً ولعله كان أكثر خواء من أية حجرة أخرى بالبيت .

هنا كانت أمه تجلس دائماً ، وكان بوسع « تايسون » أن يتذكر أيام كان صغيراً جداً وكان يجرى هابطاً السلم وهو مهتاج الأعصاب ليسبق مربيته إذا حان وقت ملاعبة أمه له . فكان يجدها بانتظاره فى « الصالون » . إذ كانت النوافذ تطل على بستان الورود الذى كان مبعث غبطة خاصة لها ، والساعة الشمسية وعليها نقوش جاهد حتى

قرأها وهو صغير : « اجمع ورودك والوقت متسع ؛ فإن الزمن لا يزال يجرى » .

وجال بخاطره أن هذا كان صادقاً ، وساءل نفسه أكان ثمة بقية من الورود لم يجمعها وهو صغير ، وإن ظل كثير منها باقياً فى ذاكرته وما من شىء يستطيع حرمانه منها ، وكم كان ذهنه يرتد إلى « ريفيل هاوس » وهو يؤدى واجبه كجندى على أرض مكشوفة ، أو يقيم فى منزل برتغالى قذر كثير الضوضاء لا تطاق فيه رائحة وتهاجمه فيها البراغيث ، كان يجد نفسه وقد انتقل إلى عالم أحبه وهو طفل ، فينسى فيه الحرب ومتاعبها .

كان يذكر أول طائر اصطاده بالبندقية وقد حمله مزهواً إلى المطبخ ليريه لمسز بريجز ، التى قالت : «سأطهوه لك للعشاء يا سيد تايسون » . فأجاب : « كلا . إنه لأمى ، ولكنى أتوقع أنها ستسمح لى بأن أتذوقه » .

وردت مسز بريجز : « إننى متأكدة من ذلك ، وستفخر إذ تعلم أنك ستكون صائداً مصيب الرماية كأبيك » .

كانت هناك ذكريات لحقول التبن التى كان يلعب بين أكوامه. كذلك كانت هناك ذكريات أخرى حين كانت الثلوج تكسو المكان وقد صنع له نجار الضيعة زلاقة كان يطوف بها السفوح مزهواً لتنقلب به عند النهاية دائماً .

كانت الذكريات كثيرة ، وكم كان يعتقد دائماً أنه سيعود بعد انتهاء الحرب إلى « ريفيل رويال » فيجده كما تركه .

وراح يسائل نفسه : «أين أبدأ» . وواتاه صوت بريجز : « العشاء مجهز يا سيدى » . وأضاف الشيخ بلهجة مختلفة بمجرد أن التفت : « ما أطيب أن أرى أنك عدت يا سيد تايسون » .

كان بريجز يبدو أكثر شيخوخة من زوجته ، ولكن تايسون تذكر أنهما متساويا السن فعلا . ولقد ازداد نحولا هو الآخر ، وقد عثر على سترة رئيس الخدم ذات النقوش المميزة وارتداها بطريقة ما ، فبدت مهدلة عليه ، ولكنها كانت بالنسبة لتايسون إشارة ترحيب أشاع الدفء فى قلبه ، وأزاحت ظلام أفكاره وتخبطها . فبسط يده قائلا : « إن اللقاء بك وبمسز بريجز يعطى البيت طابعه . وما كان كعهدى به لولا كما » .

– إن الأمور ليست كما عهدتها يا سيد تايسون ، ولكن لعلك تستطيع إعادة البيت كما كان .

فأجاب تايسون ديل : « إننى سأحاول » ، ولكنه كان يدرك أن هذا وعد أجوف .

كان بحاجة إلى مال ، ولكن من أين ؟

وتناول الطعام الذى سوته له مسز بريجز ، ونحى جانباً اعتذارات الشيخ بريجز ووعده بأن يتحسن الطعام إذا ما أتاح لها وقتاً أطول .

وقال تايسون لنفسه : « سأصيد غداً بعض الطيور للطهو ، ولن يكلفنا هذا شيئاً على الأقل » .

ثم تساءل هل هناك طلقات للبنادق التى كانت معلقة كالعهد بها دائماً فى حجرة البنادق ، وهل هناك شيء يمكن اصطياده . لقد كان هناك الكثير مما لا يعرفه ، كان هناك الكثير ليكتشفه فى البيت ، ولكنه كان يخشى ما قد يعلم وإن لم يعترف بذلك .

وقال لنفسه إذ انتهى من طعامه البسيط : « كان ينبغى أن أعود عندما مات أبى » ، ثم تساءل بصوت مسموع : « أما تزال حانة (الكلب والبطة) موجودة ؟ » .

فأجاب بريجز : « إنها لا تزال موجودة يا سيدى ، ولكن صاحبها تبدل ، فقد مات مستر « تاج » منذ خمس سنوات ، وانتقلت ملكيتها لرجل يدعى فينش » .

قال تايسون وهو يبتسم : « سأذهب وأزوره ، ولن أغيب طويلا ، فلا تنتظرنى ، واترك الباب الأمامى مفتوحاً » .

– سأفعل يا سيدى ، ولعلك تدفع المزلاج إذا ما رجعت ، فإن القفل مكسور منذ سنوات .

– سأعنى بتدبير بعض الإصلاحات .

وخرج تايسون من قاعة المائدة حيث تناول طعامه ، واجتاز الردهة المؤدية إلى البهو .. وكانت تطل عليه من الإطارات المذهبة عدد من جداته السالفات . وما كان قد فكر فى أنهن كن ذات جمال

باهر ، ولكنه شعر فجأة بموجة من الغضب إذ فكر فى أن صور أجداده من أسرة « ديل » – وقد رسم بعضهن فنانون كبار – كانوا فى حوزة عمه .

وقال لنفسه : « يا للعنة ! .. سأهتدى إلى طريقة للكفاح من أجل حقوقى ، ولو استغرق هذا كل مالى من عمر » .

واجتاز الباب الأمامى وهو يتم حديثه ، وجذبه خلفه بعنف وهو غاضب . وعجب وهو فى تفكيره قد يهوى الباب من مفاصله وإنه الآخر قد يحتاج إلى تصليح .

وهبط الدرجات حيث كانت الحشائش وأطلت من بين الشقوق بضع زهور زاهية الألوان ، وهو يصفر لسلامانكا . وتذكر أوامره للجواد بألا يبتعد إذ سرعان ما جاء يركض نحو سيده وبدأ يتشممه .

وربت « تابسون ديل » عنقه ، وهو يتساءل : « أقضيت وقتاً طيباً يا صاحبى ؟ .. هذا أكثر مما لقيت أنا . علينا أن نتفقد الحظائر إذا ما عدنا ونرى حالها لتأوى إليها » .

ونفخ سالامانكا أنفه مرة أخرى ، وكأنه كان يفهم كل ما قيل ، ثم انطلقا معاً فى الدرب المؤدى إلى القرية .

وارتاح إذ رأى الأكواخ ذات الأسقف البيضاء والسوداء لا تزال تلوح كما عهدها دائماً إلى حد كبير ، وأن الكنيسة الرمادية لا تزال قائمة ، وأن صف البيوت التى أقامها أبوه لإيواء الفقراء لم يتغير فيه شىء . وساورته فكرة أن بعض القرميد قد تساقط ،

وأن إطارات النوافذ فى حاجة إلى طلاء ، ولكنه لم يشأ أن يمعن النظر عن قرب . وواصل وجواده السير إلى الأراضى الخضراء بالقرية .

كانت كما تذكرها على الأقل . فبحيرة البط تتوسط المساحة ، وجذوع الأشجار العتيقة التى لم تقتطع منذ مائة عام قائمة . وعلى الجانب الآخر كانت حانة « الكلب والبطة » وقد انتشرت مقاعدها خارج مبناها ، حيث اعتاد كهول القرية أن يجلسوا ويتجاذبوا الحديث ساعة بعد ساعة .

وكان الوقت قد تجاوز أمد بقاء الكهول فى الخارج ، ولكن « تابسون » سمع أصواتاً وضحكات خلال النافذة المفتوحة ، فأدرك أن الحانة قد تكون مليئة بالأصدقاء القدامى .

ثم سار مجتازاً البوابة القائمة بجوار الحانة ، حيث كان يدرى أن بوسعه أن يجد حظيرة مناسبة – وإن كانت بسيطة – ليترك فيها سلامانكا . وهنا شهق فى دهشة ، فإن الأمور تبدلت منذ رحيله ، فرأى الحانة قد امتدت من الخلف ، وأصبحت شبه نزل . وخطر له أن المبنى ذا الطابقين لابد أن يضم عدداً من الأسرة لراغبى النوم ، وأن فى الساحة القائمة بالجانب الآخر حظائر جديدة . وكان هناك عدد من المركبات فى وسط الفناء يؤكد أن ظنه كان فى محله .

كان العاملون – إن كان هناك عاملون – جد مشغولين لأن يأبهوا به ، فمضى تابسون إلى حظيرة خالية أودع « سالامانكا » فيها

وواصل وجواده السير إلى الأراضى الخضراء بالقرية .

كان فى مزودها عشب طازج وبعض الحب التى تركها جواد رجل غنى – لم يكن جائعاً – ودلو ملىء بالماء .

وسمع تايسون ضجيج جياد فى الحظائر الأخرى .. وعندما اجتاز الفناء ، وتجاوز الباب الجانبى للنزل ، وتقدم من المشرب ، رأى أنه يختلف عما كان يعهد ، وأنه لن يعثر على أحد من أهل القرية السابقين الذين عرفهم وهو صغير .

* * *

تبين تايسون بعد عدد من الساعات أنه وإن تحدث إلى عدد من الناس وشرب القدر الأكبر من زجاجة « كلاريت » ممتازة « لم يجد أحداً من أصدقاء صباه . ولا امرأ يرحب بعودته إلى الوطن كما كان يرتقب .

كان «مستر فينك» – المالك الجديد للحانة – مختلفاً عن مستر «تاج» الذى لم يكن يمتلك متجر القرية فحسب ، بل كان مركز مصدر أقاويل القرية . لم يكن هناك ما يجرى دون أن يعرفه « تاج » ودون أن يكون مستعداً لأن يثرثر بصدده ساعات وساعات . أما « فينش » فعلى النقيض من ذلك . قام بخدمة « تايسون ديل » دون أن يبدى اهتماماً برؤيته . فكان يعامله كعميل ينفق النقود فحسب . كان تايسون وحيداً . ولأنه كان يصبو لأن يتحدث لأى أحد ، فإنه شرع فى تجاذب الحديث مع بعض الرجال الذين كانوا فى الطريق لمشاهدة السباق ، وإلى اثنين آخرين كانا عائدين لتوهما من مباراة

للمصارعة فازا فيها بقدر من المال . ووجد نفسه يتقبل كؤوساً من شراب لم يكن راغباً فيه » إذ كان يؤثر « الكلاريت » الذى كان بالغ الجودة » والذى خالجه الشك فى أنه مهرب عبر « القنال » .

وأخيراً رأى أن الوقت حان ليعود لداره ، إذ خلا المشرب من عدد ممن كانوا يتناولون الشراب – إذ صعدوا إلى مضاجعهم . وخطر له أنه غير مرتبط بأحد فبوسعه أن يخبر صاحب المكان عن نفسه ، ثم قرر العدول عن ذلك . فقد يستطيع الحضور فى يوم آخر والحانة غير ممتلئة . فضلا عن أنه شعر بأنه متعب مما ذهب بالميل إلى الحديث

ودفع قيمة ما شرب ثم خرج إلى الساحة ، وقد شعر أنه بعد امتطاء جواده يوماً طويلا ، لم ينل بعده عشاء يذكر » فإن ما شرب يكفيه . فقد كان « تايسون ديل » مقلا فى الشراب عادة . ولقد شرب نبيذ البرتغال وأسبانيا لأنه كان أسلم من احتساء الماء ، وقد استمتع بخمور فرنسا ، ولقد أراد أن يصحو صافى الذهن فى الصباح وقال لنفسه : « سأكون صافى الذهن عندما أصل إلى البيت على صهوة سالامانكا » .

وفتح باب الحظيرة ، فالتفت إليه « سالامانكا » برأسه . وهم تايسون بأن يقول : « أرجو أن تكون استمتعت بوجبة جيدة يا صاحبى ، فلسنا ندرى من أين ستأتى وجبتك التالية » . ولكنه سمع صوت سيد مهذب فى الحظيرة التالية يتساءل : « هل أعطيتما الحوذيان

ما يكفى لأن يلزما الصمت فى الساعات القلائل التالية ؟ » .

وخيل لتايسون أن هذا السؤال غريب ، فأصاخ سمعه للجواب ، وإذا به يصدر عن رجل كان من الجلى أنه غير متعلم : « لا تشغل بالك أيها السيد ، فلسوف ينامان كأنهما كتلة من الخشب حتى الصباح ، ويستيقظان برأسين تجعلهما يتساءلان عمن يكونان » .

أجاب السيد المهذب : « هذا حسن . ولقد دسست مخدراً فى نبيذ العجوزين ، فلن نسمع منهما اعتراضاً الآخرين » .

وأعقب كلامه بضحكة.وأدرك تايسون أن فى الحظيرة المجاورة ثلاثة رجال » إذ تكلم الثالث فقال : « ألا ننطلق الآن يا سيدى ؟ » .

فأجابه السيد : « إنك ستأتى معى يا جيك ، لتحضر أمتعة الشابة ، بينما يسرج (بيل) الجوادين إلى المركبة . احرص على ألا تترك شيئاً، فإننى أود أخذ كل ما أستطيع الحصول عايه » .

قال جيك : « سأحرص على ذلك » . فقال السيد : « إذن ، اتبعنى وافعل مهمتك يا بيل . وبمجرد أن أهبط بالفتاة ، علينا أن نرحل بأسرع ما فى وسعنا » . فأجاب جيك : « سمعاً وطاعة يا سير نيفيل » .

وأعقب ذلك صوت أقدام الرجلين يبتعدان ، وفى أثرهما أقدام الجياد وهى تقاد إلى الساحة . فرفع « تايسون » يده عن سرج « سالامانكا » وسار إلى الباب الذى كان قد تركه موارباً . وإذا برجل يقود جوادين مسرجين إلى مركبة مغلقة تقف فى وسط الساحة .

قال « تايسون ديل » لنفسه : إن الأمر لا يعنيه . ولكنه لم يرتح لفكرة أن حوذيين وعجوزين قد خدروا . ثم انبسطت التقطيبة بين عينيه ، وقال لنفسه : إنما سمعه كان يعني خطة لفرار الفتاة المذكورة مع السيد الذي تولى الاستعدادات .

كانت مسألة غرامية . ولكنه وجد نفسه يتذكر أن السيد المهذب قال : « احرص على ألا تترك شيئاً ، فإنني أود أخذ كل ما أستطيع » . وبدت هذه العبارة بعيدة عن الحب والغرام . ولكن، لعل الشباب تبدل منذ كان في إنجلترا آخر مرة ، فعاد يقول لنفسه إن الأمر لا يعنيه .

ثم لم يملك أن سار عبر الساحة وقد أثار الأمر فضوله ، واجتاز الباب الجانبي الذي عرف أن السيد المهذب و « جيك » قد اجتازاه . فما كان هناك أي ضرر في رؤية ما يجري على أية حال ، ومن المؤكد أن القرية الهادئة التي ما عرفت فضيحة وهو صبي قد تبدلت خلال السنوات التي غابها .

كان يسير متباطئاً عن عمد ، وهو يعرف — دون نظر منه — أن « بيل » لم يلتفت حتى في اتجاهه ، وهو يشد ذراعي المركبة ليستقيم الجوادان ، كانا يبدوان جوادين قويين ، قادرين ، وخطر لتايسون أن العاشقين لن يجدا عناء في أن يسبقا من قد يتعقبهما .

ودخل القسم الجديد من المبنى فوجده قد صمم في سعة ، وجهز بغرفة مائدة خاصة تفضي إلى ممر واسع وسلم مكسو بالبساط يفضي

للطابق الأعلى : ولم ير أثراً لأحد في الطابق الأرضي ، فصعد الدرجات في هدوء . وما إن بلغ القمة حتى وجد رجلا قادماً نحوه يحمل على ظهره حقيبة كبيرة . وأسرع يتوارى في الظلال ، فر « جيك » — وما كان يمكن أن يكون سواه — دون أن يبصره ، وبدأ يهبط الدرجات في حذر .

وواصل تايسون التقدم في الردهة ، فما لبث أن رأى الضوء خلال باب مفتوح ، وتوقف ، ثم تقدم منه ، وسمع الرجل المهذب يقول نافذ الصبر : « هيا .. أسرعي ! » .

وأجابت امرأة في لهجة شاكية : « كيف أرتدي ثيابي .. وأنت تراقبني ؟ » .

أجاب الرجل : « قلت لك : إنني مغمض العينين ، وما لم تفعلي ما أقول فإنني سآخذك كما أنت » وعليك أن تتصرفي » .

— لا تجسر .. لن أدعك .. كيف لك أن تتصرف بهذه الطريقة المثيرة ؟

— قلت لك إنني أعتزم أن أتزوج منك .. فماذا تريدين أكثر من هذا ؟ » .

— إنني لن أتزوج منك . إنك لتعلم أنني لا أحبك .

— سأكون زوجاً لائقاً بك ، ويجب أن تحمدي حظك .

أجابت الفتاة : « لا رغبة بي بأن أتزوج .. أي امرئ ! » ..

وتبين تايسون أن صوتها مثقل بالدموع . بينما صاح الرجل : «أسرعي

وكفى عن الكلام . أقسم أننى لن أطيل الا نتظار » .

وصدرت عن الفتاة صرخة صغيرة كأنها من حيوان يتألم، فشعر تايسون بأنه يشد قبضتيه على الرغم منه . ثم واتته فكرة مباغتة، فتحرك بخفة عائداً فى الردهة ، وتبين أثناء ذلك أن « جيك » كان فى أسفل درجات السلم . ولم يسعفه الوقت طويلا فاختفى فى الظلام قبيل أن يمر « جيك » متجاوزاً إياه ، وسمع غمغمة أصوات خافتة ، وانقضت دقيقة تقريباً قبل أن يعود الرجل للظهور ، وهو يحمل – فى هذه المرة – حقيبة أكبر على ظهره ، وأخرى أصغر بين يديه . وهبط السلم ودلف إلى الساحة . فتبعه تايسون وراقبه وهو يضع الأمتعة بجانب المركبة ، ويقول لبيل : « بقيت حقيبة واحدة أخرى » ، واستدار عائداً إلى المنزل .

وانتظر « تايسون » فى الردهة، فاجتاز « جيك » المدخل، واتجه إلى درجات السلم ، فعاجله « تايسون » بلكمة على ذقنه . ألقته على الأرض دون أن ينبس بكلمة ، فقد كان رجلا ضخماً ، بادى القسوة ، ولكن المفاجأة ، جعلته يستلقى غائب الوعى .

وفتح تايسون باب أقرب الحجرات ، فإذا بها حجرة خاصة للمائدة ، اعتاد علية القوم أن يفضلوا تناول الطعام فيها على حدة إذا اضطروا لأن يعرجوا على النزل . فسحب « جيك » إلى داخلها ، وأغلق الباب ، وأوصده بالقفل ، ثم عاد يصعد الدرجات .

وتحرك بخفة فى الردهة العليا ، فسمع الفتاة تقول : « لابد أن

أرتدى وشاحى .. فإننى بدونه أشعر بالبرد » . فأجاب الرجل : « سأدفئك بين أحضانى » . وكان فى لهجته سخرية وخبثاً زادا من قوة تايسون وهو يمسكه من مؤخر عنقه . فشهق الرجل وحاول أن يلتفت إلى مهاجمه ، ولكن الحركة كانت مستحيلة عليه . فحاول أن يستخدم قبضتيه ولكن تايسون لكمه – كما فعل بخادمه – لكمة رفعته عن قدميه ، فسقط بعنف ، وارتطم رأسه بركن من صوان الملابس . ورقد فاقد الوعى تماماً ، وقدماه منفرجتان أمامه .

ورأى تايسون أنه كان شقياً بالغ الأناقة ، يرتدى أحدث الأزياء .

وسمع صرخة بسيطة من خلفه ، فالتفت مستبعداً تأمل الرجل . وسمع صوتاً : « إنك أنقذتنى !.. من تكون ؟.. كيف تسنى أن تأتى لتجدنى فى اللحظة المناسبة ؟ » .

بدت الكلمات كأنها تتساقط ، ورأى أنها تصدر عن شفتين جميلتى الرسم ، فى وجه بيضاوى ذى عينين واسعتين راحتا ترمقانه . وضمت الفتاة يديها وهو يتأملها ويرى أنها أجمل فتاة رآها منذ زمن طويل . وقالت : « كيف تسنى هذا ؟.. إننى أشكرك وأرجو أن تأخذنى بعيداً عن هنا » .

فتساءل : « آخذك بعيداً . إن عجوزين – أظن أنهما الوصيان عليك – مخدران بفضل هذا الوحش السيئ . ولكنى أعتقد أنهما سيكونان بخير فى الصباح وتستطيعين أن تواصلى رحلتك » .

فتطلعت الفتاة وراءها كأنها تتوقع أن ترى الاثنين خلفها ثم قالت : « إنك .. لا تفهم الأمر » .

— أخشى ذلك . كل ما تناهى إلى سمعى هو أن جوذى هـذا السيد كان مأموراً بأن يدس المخدر لها ، كما أن هذا الشخص القمىء خدر الذين كانوا يرافقونك .

ورآها تستمع فى دهشة ، فأضاف : « لقد ظننت أنكما عاشقان هاربان » . فارتجفت قائلة : « هـذا ما كان يريده منى .. ولأننى رفضت أن .. أتزوج منه .. تولى تدبير هذا » .

لم يبد الأمر مستغرباً . كان شعرها أشقر يشوبه احمرار تحت ضوء الشمعة ، وكان وجهها صغيراً ، حتى ليتعذر أن يصدق المرء إنها فى سن يسمح لها بالزواج . ولكن ثوب الرحيل كان أنيقاً يبين تكور ثدييها .

وقالت الفتاة : « كان سير نيفيل شديد الإلحاح .. ويأبى أن يتقبل الرفض ولكن .. لعله كان أفضل من المصير الذى ينتظرنى إذا أبيت أن تساعدنى » ، فرد عليها : « لست أفهم كما قلت .. ولكنى وقد ساعدتك حتى الآن ، أجدنى مستعداً لمزيد من المساعدة إذا أمكن » .

صاحت الفتاة : « شكراً لك .. شكراً .. إننى لأراك كريماً .. وأدرك أن بوسعى الركون إليك » .

— لماذا أنت واثقة من هذا ؟

فطوحت بيدها قليلا وقالت : « لا أدرى .. ولكنى واثقة .. وقد خففت لتجدنى عندما ظننت أننى قد ضعت تماماً ونهائياً ، وأننى مضطرة إلى أن أفعل ما أراده سير نيفيل الذى توعد ... » .

وتضرج وجهها وارتبكت فقال تايسون : « لقد سمعت وعيده . عليك أن تنسيه » .

ونظرت الفتاة إلى الشخص الملقى وهى قلقة وقالت : « هب أنه أفاق .. وهاجمك » .

قال تايسون مطمئناً : « أظنه ما يمكن أن يقال : لا قيمة له » .

— أرجوك .. خذنى إلى مكان أمين .. مكان أستطيع أن أختبئ فيه .

— لماذا تضطرين إلى هذا ؟

— لأن عمى وزوجته يأخذاننى إلى لندن حيث أضطر .. إلى الزواج من رجل أزدريه وأمقته .

— وهل عليك أن تفعلى ما يمليان ؟

— إنهما الوصيان علىّ .. وأنا بعد فى التاسعة عشرة .

كان قد نسى أن النساء اللاتى تقل أعمارهن عن الحادية والعشرين ، بل أكبر من هذا أحياناً ، يكن تحت الوصى ، سواء كان أباً أو عماً . وخطر له أنه من غير المحتمل أن تستطيع هذه الصغيرة أن تتحدى أحداً فيما يعتزم أن يفعل .

واستطردت الفتاة : « لقد فكرت فى أننى قد أنتحر حتى

لا أتزوج رجلا أكرهه . ولكنني لم أعرف .. كيف أفعل ذلك .. وما أبشع أن تطيش الرصاصة أو السكين .. فأجرح فحسب » .

قال تايسون فى حدة : « لا تتكلمى هكذا .. إنك صغيرة وجميلة ولا بد أن هناك شخصاً تودين أن تتزوجى منه بدلا من شخص تكرهينه » .

— ما أتيح لى أن ألتقى بكثير من السادة المهذبين .. ما كنت أقابل إلا الذين يوافق عليهم عمى . ولقد أبعد سير نيفيل ، وها أنتذا ترى النتيجة .

— ليس كل الرجال سيئين بهذه الدرجة .. ولعلك تتحدثين إلى عمك إذا ما أفاق من الخمر المخدرة ، وتقنعينه بأن يتصرف بتعقل فى أمرك .

صاحت : « مستحيل .. لقد عقد عزمه على أن أتزوج من السيد الذى سنلتقى به فى لندن .. وزوجته — التى تكرهنى — تقر بأن هذا خير ما أفعل » .

وقف تايسون يتأمل العينين الضارعتين . وقال لنفسه : إنه فعل ما يكفى ، إذ أنقذ هذه الفتاة التى كانت أقرب إلى الطفلة ، وقد آن له أن يختفى من الصورة وأن يترك المستقبل يعنى بنفسه . وكأنما أدركت هى ما يساوره من شك . فقالت فى مزيد من الإلحاح :

— أرجوك .. إنك أملى الأوحد ، فإذا خذلتنى فسأقتل نفسى . ليس بوسعى أن أفعل ما يطلبون .. لا أستطيع .

فسألها تايسون فى حس متبلد : « لماذا ؟ » .

— لأن هذا الرجل .. الذى يريدون أن أتزوجه .. إن مس يدى .. فسيقشعر جلدى .. هناك شىء .. خطأ .. خبيث .. بصدده .. إننى أوقن بهذا فى فؤادى .. ولكنى حين حاولت أن أوضح ، قالوا : إن هذا من وحى خيالى .

ولزم تايسون الصمت فازدادت اقترابا منه وأردفت : « ليتك تستطيع إخفائى ليوم أو اثنين لأدبر ما أستطيع فعله .. لأتذكر أى شخص يمكن أن يكون رفيقاً بى .. وسأشكرك طيلة أيام عمرى من أعماق قلبى » .

وتطلعت إليه ، ثم قالت : « إذا رفضت فسأضطر للرحيل وحيدة . أتظن بوسعى أن أستأجر مركبة تقلنى إلى لندن ؟ » . فأجابها « لن تستطيعى الذهاب إلى لندن وحدك » .

— إذن .. فلعل ثمة مكان آخر ؟ .. إن « دوفر » ليست بعيدة عن هنا .

وفكر « تايسون » فى دوفر كما كان قد رآها فى ذلك الصباح .. كانت زاخرة بجنود قادمين عبر القتال .. يهيمون فى الشوارع سكارى منفعلين بحريتهم التى ظفروا بها من جديد . وكان الضباط يحتفلون فى فندق « لورد واردن » بالانتصار بأى خمر يستطيعون شراءها . فقال محتداً : « ليس بوسعك الذهاب إلى دوفر » .

قالت فى يأس : « لا بد أن هناك أماكن أخرى » . فقال :

« فكرى قليلا .. من الواضح أنك معتادة على العيش المترف وعلى نيل كل ما تبغين . وقد تكونين مضطرة لزواج لا تستملحينه ، ولكن النساء يعرفن كيف يتدبرن الأمور ، ولعلك تحبين الرجل إذا ازددت معرفة به » .

صاحت : « أبداً .. لقد أخبرتك بأنه يثير اشمئزازى ، وأوثر أن أموت .. إننى جادة فيما أقول .. أوثر أن أموت ولا أدعه يقترب منى » .

كانت ترتجف وهى تتكلم ، وقد غطت وجهها بيديها ، ومرة أخرى انبعث فى نفس تايسون نذيراً بالابتعاد والوقت سانح ، وكان الأمر عسيراً عليه « فما بالك بهذه الفتاة ذات الوجه الجميل ، والثياب الغالية ، وما بدا من أنها من نشأة ذات قيمة . ووقف ينظر إليها فما لبثت أن نزعت يديها عن وجهها وقالت : « أرجوك .. أقسم لك أننى لن أتسبب فى مشكلات ، وسأرحل بمجرد أن أستطيع .. ولكنى محتاجة إلى وقت لأفكر .. أين أذهب » .

ولعل الدموع المغرورقة فى عينيها دون إراقة ، هى التى أوحت إلى تايسون بقراره . فما كان يطيق أن يرى امرأة تبكى .. ومع أن فكرة فى أعماق فكره أنبأته بأنه مجنون ، فقد وجد شفتيه تقولان : « ليكن .. سأساعدك ، ولكن إلى أن يتاح لك وقت للتفكير فحسب » .

وكأنما أشرق وجهها كله بضوء داخلى ، وأومضت عيناها وهى تشكره ، فقال : « يساورنى إحساس ممض بأننى سأزج بنفسى

فى المتاعب بهذا الصدد » . فقالت : « لو ساعدتنى بطريقة ما فإننى ساعوضك .. كل ما أبتغيه الآن هو أن أبتعد من هنا » .

وابتسم تايسون وحمل الحقيبة الوحيدة التى كانت باقية بالحجرة ، وقال : « إذن فتعالى .. ولكن تزودى بالوشاح الذى كنت تتحدثين عنه » .. ففتحت صواناً وأخرجت منه الوشاح وقبعة صغيرة مزدانة بشريط بلون ثوبها . وسألها تايسون : « هل من شيء آخر ؟ » .

قالت : « كلا .. أخذ ذلك الرجل كل شيء .. وقال سير نيفيل إننى يجب ألا أنسى مصوغاتى . وأظنه كان يريدها بقدر ما يريدنى » .
فقال تايسون : « أظن ذلك ، لننصرف الآن قبل أن يتبين أى امرئ ما حدث لك » .

ودارت حول ساقى سير نيفيل الممتدتين ، بينما تخطاهما تايسون . وخرجا إلى الردهة ، فأوصد الباب بالقفل واستبقى المفتاح فى جيبه قائلا : « لنأمل ألا يستدعوك فى الصباح الباكر » . فضحكت وهى تفهم ما كان يقصد . ثم أسرعت تسبقه فى الهبوط على الدرجات لتنتظره عند نهايتها وهى مضطربة . وقال : « انتظرى هنا » .

وسار دون تعجل إلى الساحة . كان « بيل » يجلس على مقعد الحوذى ، وهو ينظر إلى الباب الذى برز منه . فدار تايسون حول العربة ، وتطلع إليه قائلا بصوت خفيض : « لدى رسالة لك » .

وانحنى « بيل » نحوه فجذبه إلى الأرض . وأسكته كما أسكت مخدومه و « جيك » . ثم جره عبر الساحة إلى الحظيرة التى كان

الجوادان فيه ، فألقاه على التبن . ثم ذهب إلى الحظيرة المجاورة ، وقال لجواده : « هيا يا سالامانكا » .

فسار الجواد إليه فأحاط عنقه بالعناق ودس أطرافه فى جانبيه ، ثم سار إلى الساحة والجواد يتبعه . وأشار إليها فأسرعت نحوه ، وفتح لها باب المركبة . فهمست : « وجوادك ؟ » . فأجاب بثقة : « إنه سيتبعنا » . وقفل الباب ، وقفز إلى مقعد الحوذى فأمسك بالأعنة . وقاد العربة إلى الطريق .

والتفت خلفه ليستوثق من أن « سالامانكا » يتبعه ، وقاد العربة دون تعجل نحو القرية ، ثم ارتد نحو « ريفيل رويال » ، وهو يقول لنفسه : « لقد ظننت أن السلام فى إنجلترا ، وأن الطمأنينة ستكون مملة ، ولكنى بدأت حياتى المدنية حقاً بمغامرة أتوقع أن تنتهى بى إلى السجن ، ما لم أكن حذراً » .

وساءل نفسه : ترى ما عقوبة اختطاف قاصر ، فأمضه أنها النفى من البلاد .

* * *

الفصل الثانى

بمجرد أن أوقف تايسون الجوادين عند الباب الرئيسى ، أقبل رجل يهبط درجات السلم مهرعاً ، فتأمله تايسون بدهشة ، ثم صاح : « هوكينز ! .. ما ظننت أنك ستصل إلى هنا بهذه السرعة ! » .. فشد الرجل قوامه ، وأدى تحية عسكرية ، وعلى وجهه ابتسامة عريضة .

وقال : « ما استغرقت المسافة الوقت الذى كنت أظنه يا سيدى » .

قال تايسون وهو يضع الأعنة جانباً ويهبط من مقعد الحوذى : « لا يمكن أن تزيد سعادتى عما هى برؤيتك ! » .. ثم قال : « لك أن تحمل الأمتعة للداخل أولا » .

وذهب « هوكينز » إلى مؤخر العربة . حيث كانت الحقائب .. ومضت لحظة واحدة قبل أن تهبط الفتاة ، ثم تطلعت إلى البيت وهتفت : « ما أجمله ! .. هل هو ملك لك ؟ » .

كان البيت مختلفاً — فى الضوء الشاحب من القمر الهلال — عما كان عليه من قبل . فكان ضوء القمر يومض على ما تبقى من إطارات النوافذ الماسية ، وكان ثمة غموض فى الظلال التى خلعت عليه جمالا أخاذاً ذكر « تايسون » بالماضى ، وقال : « إنه لا يبدو جذاباً هكذا فى الداخل ، ولكنى لا أعتزم الاعتذار عن نواقصه . فردت الفتاة : « طبعاً . ولكنك تدرك مدى عرفانى لك إذ أحضرتنى إلى هنا » .

وصعدت الدرجات ، فرأى « تايسون » أن ثمة ضوءاً فى الداخل .

فتحول قائلا لهوكينز : « أريد أن تعيد العربة يا هوكينز ، وأظنك لاحظت أين كانت وأنت تجتاز القرية .. فاترك الجوادين هناك وارجع بأسرع ما يمكن . لا تدع أحداً يراك » .

وتذكر تايسون أن سلوك الرجل الذى خدمه فى شبه الجزيرة وفى فرنسا طيلة السنوات الست الأخيرة . كان ألا يوجه أية أسئلة ، وأن ينفذ أوامره دون تعليقات مهما تكن . واستطرد تايسون : « سأودع (سالامانكا) الحظيرة ، إذ كانت هناك حظيرة تليق » . فأجاب هوكينز : « سأفعل ذلك يا سيدى ، وهى معدة له ، فقد وجدت بعض القش ، وهو قد نام فى أماكن أسوأ .. كما فعلنا نحن » .

ووجد تايسون نفسه يبتسم لخادمه . كانت بينهما الزمالة التى يلقاها الرجال فى الحرب ولكنهم يظنون أن من العسير ترجمتها إلى مصطلحات السلام .. غير أنه كان بينهما فى الوقت الحاضر تفاهم ونوع من الارتياح إلى أن يستطيعا أن يفعلا معاً شيئاً واحداً .

والتقط تايسون أحد مقبضى الحقيبة الثقيلة ، وتناول هوكينز المقبض الآخر وحملا الحقيبة معاً فوق درجات السلم ، ووضعاها فى البهو ، وكانت الفتاة تقف فى انتظارهما ، وضوء الشمعة يجعل شعرها يومض بلهب كالنار . ووجد تايسون نفسه مرة أخرى يرى أنه ليس من المدهش أن يود الرجال الزواج منها سواء برغبة منها أو عدم رغبة .

وأحضر هوكينز بقية الأمتعة وقال : « سأنصرف الآن يا سيدى .. وستجد كل شىء معد لك فيما ذكرت لى السيدة العجوز أنه المخدع الرئيسى » .

فقال تايسون : « شكراً يا هوكينز .. ولكن هذه السيدة ستنام فيها الليلة » . فاعترضت الفتاة قائلة : « كلا .. يجب ألا أحرمك من حجرتك » . فرد عليها : « إننى وهوكينز نستغل ما هو متاح . وسأرى هل تصلح حجرة أبى . ثم تنتقلين إليها غداً » .

وحملقت فيه بعينين خيل إليه أنهما فى زرقة البحر ، وداخله الشعور بأنها راغبة فى أن تطيعه ، لتعبر بذلك عن عرفانها لصنيعه . ولم تبد مزيداً من الاعتراض « فحمل أصغر قطعة من أمتعتها وقال : « أتكفيك هذه الليلة ؟ » . قالت : « أجل ، إنها كل ما احتجت إليه فى النزل ، ولكن عى رأى أن الحقائب الأخرى ستكون فى مزيد من الأمان إذا كانت فى حجرتى وليست بالمركبة » .

وشرع تايسون يصعد درجات السلم وهى تتبعه . ثم توقف وعاد ليحضر شمعة . وقال : « إننى وصلت إلى هنا اليوم فقط ، ولا بد أن الأبهاء مظلمة ، ولو كانت الشموع مضاءة فى حجرتى » .

ولاحظ أنها تتلفت حولها « فأيقن بأنها لم تغفل الغبار المتراكم « والنوافذ المحشوة بقطع من القماش لأن زجاجها تهشم ، فقال وكأنما سألته : « لقد غبت فى الخارج ثلاث عشرة سنة » ، فعقبت : « كنت موقنة من أنك عسكرى ، قبل أن أرى خادمك وهو يرتدى زياً

عسكرياً » . فأردف : « لم يعد هذا من حقه » . وقفز لذهنه ما ينبغى عمله إزاء هوكينز . كان عليه أن يخبره بأنه لن يستطيع استخدامه . ولقد فعل هذا قبل أن يغادر « دوفر » ، ولكن هوكينز أصر على أنه سيلحق به فى « ريفيل رويال » ، وقال :

— ليس من مشروعات لدى يا سيدى . وقد مات والداى ، وأصبحت مشرداً فى الواقع . إننى سأهتم باستقرارك فى بيتك ، ثم أرحل إذا لم تعد بحاجة لى .

— إنها ليست مسألة عدم احتياج لك يا هوكينز ، وإنما مسألة أننى لم أعد أمتلك نقوداً أدفع منها أجرك ، وبقدر ما أستطيع أن أؤكد لك ، لن أجد قوتاً كافياً لسالامانكا .

وبرغم كلامه هذا ، فقد كان فى قلبه شعور من التفاؤل بأن الحال لن تستمر بالسوء الذى ارتقبه ، ولكنه — فى الواقع — وجدها أسوأ مما توقع ، ورأى — وهو يبلغ قمة الدرجات ويتحول للردهة المفضية إلى « الجناح الرئيسى » — أنه كان مجنوناً إذ أقحم نفسه مع فتاة غريبة كتلك التى كانت تصعد وراءه .

ما كان المبلغ الذى ادخره فى فرنسا ليدوم — مع الحرص فى استخدامه — إلا لبضعة أشهر . فإلى أين يتحول بعد ذلك ليظفر بمزيد من المال ؟

فتح الباب للحجرة التى كانت لأبيه ، فرأى — كما توقع — أن هوكينز أو الشيخ بريجز قد ترك شمعتين على خزانة ذات أدراج تحمل

مرآة ذات إطار من الخشب الثمين . لهذا وضع الشمعة التى كان يحملها على منضدة خارج الباب ، بينما مرت الفتاة إلى داخل المخدع ، ثم صاحت : « يا له من سرير ما رأيت مثيلا له ! » . فابتسم تايسون إذ تذكر أنه نفس ما كان يصدر عن أى أجنبى يرى السرير ذا القوائم الأربعة الذى كان المعتقد أن الملك تشارلز الثانى نام فيه .

كان رائعاً فعلا ، بقوائمه المحفورة والمطلية بالذهب ، والمظلة التى كانت تعلوه وعليها رسوم بأسلوب عهد النهضة . وإذ لم يكن يضيء الحجرة سوى شمعتين ، كان من الميسور إغفال القطع المكسورة من الزخارف المحفورة . والغبار المتراكم فى الأركان . والأماكن التى نزع منها الذهب . كذلك لم يفطن أحد إلى أن الستائر المطرزة فى الخلف والجوانب كانت ممزقة . وأن الستر المسدلة على أسفل الفراش كانت منهوشة بالجرذان ولا ريب .

ورأى تايسون أن مسز بريجز فرشت على السرير ملاءات نظيفة ، وكانت ثمة وسائد يحف بأطرافها حواف مزركشة تذكر أنها كانت من استخدام أمه .

ووضع الحقيبة التى كان يحملها وفك الحزام عن جانبيها وهو يقول : « أرجو أن تكونى مرتاحة هنا . وإذا سمعت نصيحتى فعليك بالفراش وحاولى أن تنسى كل ما حدث حتى يسفر الصباح » .

وعادت تركز عينيها على عينيه ثانية ، فلمح فيهما استجداء . وقال : « ماذا هناك ؟ » .

قالت : « لا أريد أن أكون مصدر إزعاج . ولكنى أرجو ألا تكون بعيداً .. خشية أن يخيفنى شيء ما » . فأجاب : « إذا كانت الحجرة المجاورة صالحة للإقامة – كما أرجو – فإنى سأرقد فيها . واغلقى بابك بالرتاج ، فسيمنحك هذا شعوراً بالأمان » .

وألقى نحو الباب نظرة وهو يتساءل .. أيكون رتاجها كرتاج الباب الخارجى للبيت . وبدا أنه كان فى حالة جيدة ، وكان ثمة مفتاح فيه . وقال : « أحسب أن واجبى أن أسألك : أتودين شيئاً للأكل ، ولكنى أرتاب – بصراحة – فى كرم ضيافتى فى هذه الساعة من الليل » .

أجابت الفتاة : « كلا ، لا أريد شيئاً ، وأكرر شكرى لك لكرمك » فما خطر لى أن هناك غريب يستطيع أن يكون بهذه الحفاوة . ولم تفته رجفة فى صوتها – كانت وشيكة أن تبكى ..

فقال : « عليك بالفراش .. وستبدو الأمور أحسن حالا فى الصباح . وإذ ذاك ستعقد مجلس حرب لنبت فى خير ما نفعله لأجلك » .

ومد يده إلى الباب وسألها : « بهذه المناسبة .. ما اسمك ؟ » .

ومرت فترة تردد قبل أن تقول : « كان أبى يدعونى دائماً .. فانيا » .

– هذا اسم غير عادى .. وأنا أدعى « تايسون » .

وتبين أنها لم تكن راغبة فى إخباره بلقبها .. وأدرك لأول مرة أنها كانت متحفظة .

وغادر الحجرة فتناول الشمعة التى تركها فى الردهة ، وسار إلى الحجرة المجاورة . كانت مخدع أمه ، وشعر وهو يدخلها كأنه ارتد طفلا يجرى إلى الشخص الذى أحبه كما لم يحب سواه . وكان يدرك أنها تحبه . وبدلا من عبق العطور ورائحة الورود ، لم يشم سوى رائحة الغبار . ولاحظ أن الأثاث كان مكسواً بصفحات من التراب . وكانت الستائر المدلاة إلى جانبى السرير قد رفعت عن الأرض إلى مرتبة الفراش . وعلى ضوء الشمعة سار فى الحجرة ليفتح المصاريع الخشبية للنوافذ .

كان مخدع أمه يطل على مؤخرة المنزل ، ورأى عن بعد ضوء القمر ، وعلى وميضه رأى معبداً يونانياً ، كان قد أحضره من اليونان أحد أعضاء أسرة أوسبورن منذ مائة عام . وتذكر كيف كان يجلس فيه مع أمه التى كانت تروى له أساطير الآلهة والأبطال وعلمته أن يحبها . ولكم تمنى أن يكتسب كل فضائل الآلهة . ترى كم انقضى من زمن على هذا ، ولقد نسى معظم الآمال عندما انصرف إلى قتل الأعداء . كان يفكر فى الفرنسيين ، ليسوا كآدميين ، بل كأهل للكراهية . لخضوعهم لمعتوه بالغ الطموح يدعى «بونابرت».

وسار إلى السرير ، فدفع الستائر عن الفراش ، وجذب الغطاء . ولم يكن الفراش مجهزاً ، وإنما هناك عدة أغطية بيضاء « سويت بعناية بجوار وسادتين . فابتسم وهو يتذكر أنه نام فى أماكن أسوأ من هذا بكثير . وبدأ يخلع ثيابه . وقال لنفسه : إن هوكينز سيطلق»

الأضواء التى فى البهو ويحكم رتاج الباب الأمامى . وما كان ثمة لصوص يحتمل أن يسطوا على البيت ، ولو جاءوا ما وجدوا أشياء ذات قيمة تؤخذ .

ولكنه ما كان واثقاً من ذلك » وقال لنفسه : إنه سيطوف بالبيت فى الغد عسى أن يجد ما يمكن بيعه . وتذكر أن كثيراً من الجنود سيودون أن يفعلوا الشىء ذاته ، حتى يستطيعوا الإقامة بين أثاث عتيق ، ولوحات صور الأسرة .

وفطن وهو يستلقى على الفراش أنه جد متعب ، فقد كان اليوم حافلا ، ولم يكن قد نام فى الليلة السابقة لمبارحته السفينة فى « كاليه » ، وكان « سالامانكا » هو همه الأكبر . وشعر بأنه ينبغى أن يفكر فى المستقبل ، ولكن أدرك وعيناه تغمضان أن أهم ما كان يرجوه هو أن ينسى مشكلاته . وغشيه النعاس وهو يفكر فى أن حال البيت والصعوبات التى قد يلقاها بشأن الضيعة كانت واجبة ، فهو سيد المكان مهما كان مفلساً .

* * *

وفى الحجرة المجاورة ، خلعت « فانيا » ثيابها بتؤدة ، وأخرجت من الصندوق الجلدى ثوباً غالياً للنوم فارتدته ونامت على الفراش ، وتركت شمعة مضاءة بجوار السرير ، لأنها كانت لا تزال تشعر بشىء من الخوف . وكانت قد استسلمت للنوم فى المنزل ، عندما اقتحم حجرتها سير نيفيل بكلى ، وأمرها بأن ترتدى ثيابها فى الحـال .

فصاحت وهى تجد من الصعب أن تصدق أن أى رجل – لا سيما سير نيفيل – يجسر على أن يدخل مخدعها وهى نائمة : « كيف تجسر على المجىء هنا ؟ » .

قال بإيجاز : « انهضى ! .. إنك سترحلين معى وسنتزوج صباح غد » .

فجلست فانيا فى الفراش وقالت : « إننى لا أعتزم الزواج منك . فأرجو أن تبرح مخدعى » .

فابتسم ووضع الشمعة التى كان يحملها وقال : « إننى أعتزم الزواج منك ، ولن تمنعنى كل هذه الاعتراضات . وإذا لم ترتدى ثيابك فوراً ، فإننى سأساعدك ، وأؤكد أننى لست وصيفة ذات خبرة . وإلا فإننى سآخذك معى كما أنت » . وكان فى لهجته فى الكلام ما أنبأ فانيا بأنه كان جاداً فيما قال . وبينما كانت تحملق فيه ، تقدم خطوة منها ، فصاحت : « كلا .. إننى سأفعل .. كل ما طلبت » .

فأجاب بلهجة صارمة : « إذن . أسرعى » .

– ولكنى لا أستطيع .. أن أغادر الفراش .. وأنت تبصرنى » .

– هذا شىء لن تستطيعى أن تتفاديه إذا ما تزوجنا .

– إننا لم نتزوج بعد .

وحاولت أن يكون صوتها متحدياً . ولكنه صدر ضعيفاً ، خائفاً ، وهى تكاد تبكى .

قال نيفيل : « سأغمض عينى » .

وما كانت لتثق بها . ولكنها لم تكن تملك سوى أن تتزلق من
الفراش إلى الأرض ، وتحاول أن ترتدى ثيابها خلف مقعد ذى ظهر
مرتفع ، كانت قد تركت ثيابها عليه ، حين أوت إلى الفراش .

وسألت وقد ارتدت ما يكفى ليجنبها الحرج وهى عارية :
« كيف تتصرف هكذا ؟ » فأجاب : « لقد أخبرتك بأننى أعتزم
أن أكون زوجك ، وما نسيت كيف أهاننى عمك » .

— إنه لم يعتبر أن تكون زوجاً مناسباً .

— إننى عنيد فى إصرارى .

— أرجوك .. لا ترحل بى .. تحدث إلى عمى فى الصباح ، فلعلك
تستطيع إقناعه بأن يغير رأيه .

فأطلق ضحكة لم تبد مطمئنة ، وقال : « إنك تعلمين أن عمك
لن يصغى لى . وسيصرفنى بأسلوب مهين كما فعل من قبل » .
فقالت : « لن يكون زواجى شرعياً . فأنا لا أزال قاصراً » .

— سيكون على عمك ومحاميه أن يثبتا ذلك . ولكنك ستجدينهما
يتقبلان الأمر إذا ما أصبحت لى .

وأدركت فانيا ما كان يعنيه . فارتجفت فى يأس وهى تدرك
أن سير نيغيل إذا استولى عليها فلن يكون لها فكاك منه . وكانت قد
كرهته منذ أول لحظة رأته فيها . ولقد أغرقها بمجاملاته فى تلك
الأمسية ، ولكنها بذلت جهدها لتتفاداه طيلة السهرة .

ولاح — بعد ذلك — كأنها تقابله فى كل مكان ، وما لبث بعد

وقت وجيز أن تقدم إلى عمها يطلب يدها . والواقع أنها حمدت لعمها
قوله : إن سير نيغيل كان صائد ثروة ، وإنه انتهازى وإنه ملحاح .
وارتاحت نفسها إذ أمر عمها الخدم بألا يدعوه يدخل البيت ثانية .

ولقد ظنت أنها تخلصت منه ، ولكنها بوغتت بخطر أسوأ ، تمثل
فى خطيب وافق عليه عمها ، وأمرها بأن توافق على الزواج منه .
واستحال على فانيا أن تجعل عمها يفهم أنها ما كانت ترغب فى الزواج
من هذا الرجل ، ولا فى سواه . فقد قال بحزم : « إنك ستتزوجين
من أختاره لك ، وزوجتى توافقنى على أن الخير فى أن تستقرى فى
حياة زوجية » .

وعرفت فانيا — فى يأسها — أن ذلك كان مرجعه إلى أن زوجة
عمها كانت تغار منها وأن إرضاء حاجاتها المالية كان مصدر إزعاج .
وكم بكت فى الظلام — طيلة العامين اللذين اضطرت فيهما للإقامة فى
دار عمها — حزناً على أبيها الذى كانت تحبه . فقد كانا سعيدين معاً .
وكانت تفكر فى كل لحظة منذ رحيله كيف أنها لم تصحبه فى رحلته
الأخيرة التى لم يعد منها . فبالرغم من أن بريطانيا كانت فى حرب ،
فإن أباها أراد أن يزور جزر الهند الغربية حيث كان يمتلك ثروة
كبيرة . وكانت له مصالح مالية كثيرة . وما كان غرق باخرته عند
عودته راجعاً إلى نشاط العدو ، وإنما إلى عاصفة هوجاء غير
مرتقبة . وكم قالت فانيا لنفسها : « لو أننى لقيت مصرعى مع أبى » ..
لا سيما حين انتقلت لتقيم مع عمها .

وعندما علمت بمن ينبغي أن تتزوج ، أدركت أن لابد لها من الموت حتى لا يلمسها رجل كانت تعافه إلى الحد الذى لاح لها فيه كأنه أفعى سامة وخطيرة . ووجدت نفسها تفكر فى طريقة للانتحار أو للهرب من عمها قبل أن يصلا إلى لندن . وعندما وجدت أن الخيار الوحيد أمامها هو أن يختطفها سير نيفيل . أدركت أنها ضائعة ، وألا فرصة لها من النجاة من قدر كان أسوأ من الموت .

وفجأة . وعلى غير توقع ، ظهر رجل لم تكن ترتقبه ، وقد أنقذها . وما كان ميسوراً لها أن تتبين — حتى اللحظة الراهنة — أنه هزم سير نيفيل فى لحظة انتصاره ، وابتعد بها وعمها وزوجته بعد تحت تأثير المخدر ، فقد كان عليها أن ترحل إلى لندن ، حيث كان أكثر من رجل تكرههم بكل خلجة فيها .

وفكرت فى الرجل الذى أوى للحجرة المجاورة . وساءلت نفسها كيف تعبر له عن شكرها . فقد لاح لها كأنه ملاك إنقاذ ، أو بطل أسطورى أنقذها من وحش بحرى عندما أطاح بسير نيفيل إلى الأرض.

على أنها أدركت أنه يحجم عن أن يفعل المزيد لأجلها . لقد خف لنجدتها ، ولكنها شعرت بأنه كان خليقاً بأن يبتعد عن حجرتها بالنزل ، وما كانت ستراه مرة أخرى أو تعرف اسمه .

كان مليحاً ، ولكن على غير غرار أى رجل رأته . كان فى وجهه ما ينم عن العزم والقوة ، وعللت ذلك بأنه قد يرجع إلى أنه كان عسكرياً واجه الموت سنوات طويلة ، وكأن كل جزء من

جسمه كان ينم عن نشاط وتحفز للتصدى لأى خطر . ولابد أنه كان قوياً ، وإلا ما هزم سير نيفيل الذى كان طويلا ، عريض المنكبين ، وما فعل الشيء ذاته للحوذى الذى كان على مقعد المركبة ليقلها ومتاعها .

كانت مؤامرة ماكرة من سير نيفيل ، ولو أنه استولى عليها لتعذر على عمها الطعن فى الزواج . فقد كان هذا خليقاً بأن يثير فضيحة ، وكان عمها يتفادى الفضائح مهما كبده ذلك .

ولكن « تايسون » أنقذها .. وتمثلته وهو ينظر إليها فى غرفة نومها بالنزل ، بابتسامة مطمئنة على شفتيها ، بينما استلقى سير نيفيل فاقد الوعى عند قدميها . كان من العسير أن تصدق أن هذا قد حدث فعلا .. أن تكون مهددة ومهانة من سير نيفيل فى لحظة ، وهو يضطرها إلى ارتداء ثيابها ، ثم إذا به فى اللحظة التالية مهزوم .

وقالت لنفسها وهى تستسلم للنعاس : « إنه خليق بكل شكر وعرفان » .

* * *

استيقظت فانيا لترى شخصاً يزيح الستائر .. وتبينت أنها امرأة متقدمة فى السن — شيباء الشعر — انتقلت من النافذة إلى السرير لتقول : « أحضرت لك قدح شاى يا آنسة ، وهناك وعاء ماء ساخن كى تغتسلى » . فجلست فانيا فى الفراش ، وقالت : « شكراً لك . كم الساعة الآن ؟ » .

استيقظت فانيا لترى شخصا يزيح الستائر .. وتبينت أنها امرأة متقدمة فى السن .

ـ التاسعة يا آنسة ، ولم يشأ السيد تايسون أن يوقظك إذ ظن أنك ولا بد متعبة .

وشعرت فانيا بذهنها بصفو بعد النوم الطويل ، فسكبت الشاى الذى وضعته العجوز بجوارها ، ولاحظت أن الإبريق الفضى بحاجة إلى تنظيف . أما القدح الصينى فكان من نوع راق ، وإن كان فى الطبق جزء مشقوق . وتحركت العجوز برفق ، ففتحت الباب المؤدى إلى الردهة ، وأحضرت قدحاً نحاسياً ، حملته إلى حوض الاغتسال .

وأدركت فانيا أنها دخلت الحجرة من باب آخر كان يتصل بالحجرة المجاورة . وتذكرت فانيا أنها استأثرت بمخدع مضيفها فى الليلة السالفة ، وأنه اضطر للبحث عن مكان آخر لنومه .

وقالت وقد رفعت صوتها : « إن مخدومك بالغ الكرم » .

فردت مسز بريجز : « إننى فى ابتهاج لعودته إلينا ، فكم من أناس لم يعودوا من هذه الحرب الخبيثة » .

قالت فانيا : « هذا صحيح حقاً . ولكننا الآن حظينا بالسلام ، وبوسع كل امرئ أن يستعيد السعادة » . فقالت مسز بريجز : « هذا ما نرجوه جميعاً . أهناك خدمة أخرى أؤديها لك يا آنسة ؟ » .

فشكرتها فانيا وراقبتها وهى تبرح الحجرة . وقالت وهى تزداد شعوراً بشبابها : « لكم هى عجوز ! » .

ثم وثبت من الفراش لأنها كانت منفعلة وتشعر بأنها وسط مغامرة جديدة .

وخطر لها وهى تصب الماء الدافئ فى الحوض : « كان أبى خليقاً بأن يستمتع بهذا » . فلقد كان أبوها محباً للمغامرات دائماً ، تواقاً لأن يشهد آفاقاً جديدة ، ولكنه كان يرجو لها حياة أفضل ، وكان يقول لها : « عندما تبلغين السابعة عشرة بعد عام ، سآخذك إلى لندن حيث تتعمين بأول ظهور لك فى المجتمع » .

ولقد نظر إليها بابتسامة وأردف : « لن أحجم عن الرهان بأنك ستثبتين أنك أجمل قادمة جديدة للمجتمع فى الموسم ، وسيشرب فتيان البلاط الملكى فى (سانت جيمس) نخبك كفتاة لا مثيل لها » . وأضاف « إنك ستسلمين للقلق بعض لحظات ، ولكنى سأكون فخوراً بك » .

وكان ردها : « إننى أود أن تكون فخوراً بى يا أبى . أريد أن يعرب كل امرئ عن براعتك فى أن تكون لك ابنة جميلة ، بجانب كل إنجازاتك الأخرى » . فضحك أبوها قائلا : « ستظلين دائماً أعظم إنجازاتى يا حبيبتى ، وكم من أشياء سنؤديها معاً قبل أن تتزوجى » .

— لن أتزوج إلا إذا عثرت على رجل فى براعتك وبهائك وجدارتك بالحب يا أبى .

فضحك قائلا : « أعتقد أن هذا سيكون مستحيلا ، ولكن .. قد يكون هناك متسابق أستطيع أن أحتمله » . ولكنها قالت : « لن أتزوج أحداً ما لم يكن رائعاً مثلك ، وما لم أحبه فعلا » .

— إننى وعدتك يا حبيبتى بأمر واحد .. لن تتزوجى أحداً لا تحبينه وإلا فكأننى أسلم نفسى للجحيم فى الدنيا .

وهذا ما كانت فانيا تظنه هى الأخرى ، ولكن ما قيمة أن تقول هذا لعمها ؟ فإنه كان يرد بإصرار : « إن الحب للفلاحين ، أما علية القوم العقلاء ، فيدبرون زيجات تكون ذات نفع للطرفين » .

— ولكن « عمى » أكره الرجل الذى اخترته لى ؟

فقال بجفاء : « النساء يتعلمن الطاعة لأزواجهن . والحب الشاعرى لا يوجد إلا فى عقول الشعراء والمأفونين » .

لقد جرى هذا الحديث قبل أن يتقدم عمها أخيراً برجل عليها أن تتزوج منه ، وجعلها توقعت من البداية أن تكرهه . وقالت لنفسها : « لن يعرف العم ليونيل أين أنا ، ولن يفكر فى البحث عنى هنا . ولماذا ؟.. لو سمع بأن سير نيفيل كان فى الفندق ، فلعله يسلم بأنه قد هرب بها » .

كان هذا احتمالا مغرياً ، وبمجرد أن ارتدت فانيا ثيابها ، أسرعت تهبط درجات السلم ، لا رغبة فى تناول فطورها فقط — إذ كانت جائعة — بل لأنها كانت تبغى أن ترى « تايسون » . وكان ضوء الشمس المشرقة يتدفق خلال النوافذ المكسورة والباب الأمامى المفتوح . فاستطاعت أن ترى ما كانت عليه حال البيت ، وإن كان كل شىء قد بدا عجيباً وجذاباً .

وكان هوكيتر فى البهو ، فقال لها : « صباح الخير يا آنسة . إذا

انتقلت إلى قاعة المائدة فإننى سأحضر لك الفطور » . فسألته وهى مترددة فى كيف تذكر مضيفها الذى لم يذكر لها سوى الاسم الأول من اسمه : « أين .. المستر تايسون ؟ » .

فأجاب : « إن السيد فى الحظائر وسألحق به بعد أن أحضر لك الفطور . وسأخبره أنك قد هبطت » . فقالت : « سأحضر وألحق بكما إذا ما عرفت أين تقع الحظائر » .

ونظراً لتعجلها ، فإنها التهمت بيضة مسلوقة ، وشربت قدحاً من القهوة بسرعة ، ثم هرعت تجتاز الردهة ، وتخرج من الباب متبعة إرشادات هوكينز إلى الحظائر . وكان تايسون منصرفاً كل الانصراف إلى تنظيف سالامانكا ، وهو يرسل صفيراً يسليه . ولا بد أنه سمع وقع قدمى فانيا ، فالتفت نحوها قبل أن تقول شيئاً ، وألقى تحية الصباح . وكانت إذ ذاك تقف فى باب الحظيرة ، وأشعة الشمس تحيط شعرها بهالة وتبديها كأنها زائرة من كوكب آخر . وما فكر يوماً فى أن هناك أحداً فى صغر حجمها ، ولكنها كانت شخصاً حقيقياً .

قالت فانيا : « من المخجل أننى نمت إلى ساعة متأخرة . أتسمح بأن أساعدك ؟ »

فضحك تايسون قائلا : « لا أظن ثوبك يليق لعمل كهذا » . كان يرى الثوب جميلا ، ومناسباً .. وكانت الثياب النسائية ،

إذ ذاك أكثر إحكاماً وتفصيلا مما كانت فى أوائل القرن وكانت عالية الوسط ولم تعد شفافة .

وقالت فى غير اكتراث : « إننى لا أهتم إذا اتسخ » . فأجاب : « لكم أكره أن تفعلى ذلك . ثم إن ثيابك — مهما تصورت عددها — لن تستمر صالحة لك زمناً طويلا » .

وكانت قد اقتربت من معقل الفرس ، وتجاوزت تايسون لتربت عنق سالامانكا . وقالت بصوت خافت : « أحسبك تعرف أنك تقتنى أجمل حصان رأيته ، وأرى أن سالامانكا أصح اسم له » . فقال : « لقد أطلقته عليه بعد معركة أبلى فيها بلاء حسناً » .

— كما فعلت أنت !.. أنك حظيت بوسام .

ومرت برهة قبل أن يقول : « أجل .. فى الواقع » .

— إننى عرفت هذا .. أنت كنت بطلا ، فما كان لينقذنى كما فعلت أنت مساء أمس سوى بطل .

فاعتدل تايسون وقال : « أرى من الخير فى أن نتبادل حديثاً قصيراً عنك وعن مستقبلك يا فانيا » .

فأومضت عيناها ، ورأى هو أن إلى جانب فمها غمازة . وقالت : « أنت الآن تتخذ لهجة الآمر .. تماماً كما تفعل مدرستى فى المدرسة » . فقال : « أعدك بألا أفعل ذلك ، ولكنى أصارحك بأننى فى انزعاج من أجلك » .

— اليوم بديع ، ولا أريد إزعاجاً فيه .. إننى فى أمان ، طليقة ، وسعيدة . فماذا أرجو من الحياة أكثر من ذلك ؟

فابتسم قائلا : « الكثير .. ولهذا أريد أن أتحدث معك فأقرر ما فيه الخير لك » .

فأشاحت بوجهها عنه وألصقت وجنتها برأس سالامانكا ، وقد عزمت على أن تكون بارعة المكر ، فلا تخبره بشىء . فلو أنه عرف من تكون ، وأين كان يفترض أن تذهب إذا ما بلغت لندن ، فقد يصر على الاتصال بعمها أو بالرجل الذى كان عليها أن تتزوج منه . وقالت لنفسها : « إنه لا يعرف من أكون ، ولكنى أعرف من يكون هو » . فلقد قرأت تحت الصورة التى فى مخدعها اسم « سير توماس أوسبورن » ، واستنتجت فى ملامحه شبهاً بتايسون . وقالت لنفسها : «إنه تايسون أوسبورن، وإذا كنت فاكرة فسأحاول أن أشجعه على كتمان حقيقة شخصيته ، فيغدو من السهل أن أكتم عنه شخصيتى » .

وفرغ تايسون من تنظيف جواده ، فوضع الفرشاة على حافة النافذة ، وارتدى سترته التى كان قد خلعها ، وكأنها تعطيه شيئاً من السلطان . وقال : « هيا يا فانيا ، لنتجاوز ما هو غير سار ، ثم قد تودين أن تركبى معى فنجوس خلال ضيعتى فإنى أريد تفقدها » .

وسألته : « أتقترح أن نركب سالامانكا معاً أعتقد أنه لن يجد عناء فى حملنا معاً .

فقال : « لدى جواد آخر » .. وسار إلى معقل غير بعيد عن معقل سالامانكا . وأدركت سر عدم تجاور المعقلين حين رأت ضوء النهار خلال سقفى المعقلين اللذين يليان حظيرة سالامانكا .

وقال تايسون : « لقد ابتاع هوكينز جواده لقاء أغنية ، لأن صاحب الجواد كانا شاباً رفيعاً مدللا ، يمتلك حظائر كبيرة فى انتظاره فى بلاده ، فقرر ألا يعانى مصاعب نقل الجواد معه » .

ولاحظت فانيا فى صوته استهجاناً أشعرها بأنه مثلها حباً للجياد ، ورأت هوكينز منهمكاً فى تنظيف جواد أشهب بديع . فقالت : « إنه جميل ، ولكنه ليس فى بهاء سالامانكا » . فأقرها قائلا : « هذا ما رأيت ، ولكنه كان صفقة طيبة يا هوكينز » .

قال هوكينز : « هذا ما خطر لى يا سيدى . ولكن الوحيد الذى كان ينافسنى أفرط فى الشراب فنسى ما كان يبغى » .

ضحك تايسون قائلا : « أتعرف اسم هذا الجواد ؟ » .. فأجابه : « نعم يا سيدى ، ولعله يجوز أن أقول : إنه كان من اختيارى » .

فتدخلت فانيا قائلة : « أتعنى أنك أعدت تسميته ؟ » .

قال هوكينز : « أجل يا آنسة .. واسمه هيتوريا » . فصاحت : « اسم معركة أخرى » .

قال تايسون بلهجة جافة : « ومعركة غير سارة إطلاقاً » . فقال هوكينز : « ولكننا نجونا يا سيدى ، ولهذا فإنى أتذكرها دائماً . نجونا .. ولكن مرت بنا لحظات ظننت أننا سنهلك فيها » .

وابتسم تايسون ، إذ تذكر أن الجيش الفرنسى كان ٥٨ ألفاً من الأشداء ، وأن الملك جوزيف بذل كل ما فى وسعه ليهرب بقافلة أمتعته إلى الجبال التى كانت عصابات المجاهدين تغير عليها . وكان ثمة قلق معتاد بشأن أربع فرق تأخرت ، وزاد من صعوبة التوقيت أن الفرقة السابعة بدت كالمفقودة ، فتوقف الهجوم على الجسر . وما نسى تايسون تلك اللحظات .. لحظات التوتر والتردد الرهيبة . ثم – وفى النهاية – بدا أن كل شىء قد نشط ، وقبل أن يتبين أحد ما كان يجرى ، انطلقت المدافع ، وأومضت البنادق ، وانتهت معركة « فيتوريا » ، ووجد تايسون نفسه وهوكينز على قيد الحياة ، وإن لقى عدد كبير من زملائهما مصرعه . أجل ، ظلت ذكرى معركة « فيتوريا » فى ذهنه ، وإن غابت ذكريات معارك أخرى .

وسمع فانيا تقول : « إنه اسم جميل لجواد جميل » .

وقال : « هيا يا فانيا – ستركبين فيتوريا بعد الظهر ، أما الآن، فإنى أعتزم أن أتحدث إليك . وإن كنت أدرك أنك تحاولين تفادى الكلام » .

فقالت : « ليس صحيحاً ، ولكن يبدو أن هناك أموراً كثيرة أجدر من الحديث الممل » .

قال : « ليكن ، ولكنه مهم » . وسار نحو البيت ، وهو يتلفت

خلفه ليرى هل تتبعه فانيا . وكانت ترفع أطراف ثوبها حتى لا تتسخ. وقالت : « إنك أثرت قلقى إذ قلت إن ثيابى يجب أن تكفينى مدة طويلة فأنا على حذر لهذا » .

– هذا يبدو معقولا على أية حال .

– هذا بيت جميل ، وأظنك سعيداً جداً بأن تمتلكه .

– إننى مشغول البال إزاء ما أفعله به ، بقدر انشغالى بشأنك .

قالت فى تخابث : « إننى لست فى حال تثير الهم مثله » . فرد قائلا : « لست واثقاً من ذلك » .

وكانا يسيران من الحظائر نحو درجات سلم البيت . وقالت فجأة : « إننى أود الذهاب إلى البحيرة » . إنها جميلة جداً ، ولا بد أن يكون فيها أوز أبيض يسبح فى بهاء ويتساوق مع الماء » . فقال : « كان فيها أوز ، وأتوقع أن يكون قد طار راحلا ، إذ لم يكن هناك من يغذيه » .

ولم تفتها رنة الأسى فى صوته » فقالت : « إنك تحب البيت .. ألست كذلك ؟ » .

وصمت برهة ، ثم قال : « بلى .. أحبه ، ولكن ماذا أفعل لأحفظه ؟ » فقالت : « أتسمح لى بأن أقول شيئاً .. وأنا جادة ؟.. إنك قد تخالنى أتنبأ ، ولكنى موقنة من أنك إذا حزمت أمرك ، فى وسعك أن تفعل .. أى شىء .. تريده » . فتساءل : « كيف تعتقدين هذا ؟ » .

— لأنك من الرجال الذين ينتصرون دائماً . ولقد ذكرتني ليلة أمس بأبي ، وتبينت الآن أنك مثله تماماً .. كان دائماً يظفر بما كان يريد .. في الحياة .. وستفعل أنت نفس الشيء » .

— أتمنى أن أصدقك .. ولكن علينا أن نبرح الخيال يا فانيا ونواجه الواقع .. وإن كان كريها .

قالت : « ها نحن نعود لدرس المدرسة » .. فلم يتمالك أن ضحك !

* * *

الفصل الثالث

سار تايسون نحو حجرة المكتب ، شاعراً بأنها أصلح مكان ليتكلم إلى فانيا كلاماً جاداً . ولعله حدس أنها تقرأ أفكاره ، فقد وجدها — عندما التفت — واقفة بالباب . وسألته في احتشام : « أأجلس أم أقف يا سيدي ؟ » فابتسم قائلا بحزم : « لا تسدي على الطريق يا فانيا ، فأنت تعرفين أن هذا لصالحك » .

— هذا يعني أن الحديث غير سار للغاية .

وتقدمت لتجلس على الأريكة وهي لا تزال موجسة ، كتلميذة أمام مدرس ، ويداها في حجرها .

— عندما أحضرتك هنا ليلة أمس ، فإنك أقنعتني بأنني أنقذك من زواج غير مستحب . قالت : « هذا صحيح » . فقال : « وإني لأصدقك ولكنك تعرفين مثلي أنه ليس بوسعك البقاء هنا وحيدة معي . فيجب أن تذهبي في أقرب وقت إلى قريب أو صديق تطمئنين إليه » .

— لقد أخبرتك ليلة أمس بأنني أطمئن إليك .

— لو كان أبواك على قيد الحياة لاستبشعوا بقاءك دون رفيق يرعاك مع رجل قابلته مصادفة .

قالت : « إنني لأعرف أن أبي كان خليقاً بأن يرتاح لذلك . ولو كان على قيد الحياة لما أجبرني على زواج لا أحبه . هكذا كان دائماً » .

– دعيني أكلم عمك ، وسأحدثه عن الوضع الذى وجدت فيه نفسك ، وأعتقد أننى سأقنعه .

– هذا ما لن تستطيع فعله ، فإن عمى عنيد فى آرائه ، غبى ، يعتقد أن رأيه وحده هو الأصح .

– إنه لا يزال الوصى عليك ، وهو المسئول عما يخصك ، وليس لك أن تختفى وتتركيه يتدبر أين أنت .

– إنى أظنه سيغتبط بأن يتخلص منى .

فمضى تايسون وكأنها لم تتكلم : « إن ما أقترحه هو أن أتحدث إلى عمك وأقنعه – قبل أن أخبره أين أنت – بأن يعدنى ألا يغصبك على الزواج بأى أحد لا ترتضينه » .

– أتعتقد حقاً أنه يفى بوعده ؟.. كلا طبعاً . إننى أدرى بعمى .

– لا بد من أراه بالرغم من هذا ، فأرجو أن تخبرينى باسمه ، وأين يحتمل أن أجده .

ونهضت فانيا عن الأريكة وسارت عبر الحجرة إلى النافذة فوقفت برهة تتأمل البحيرة ، قبل أن تقول : « إننى سعيدة هنا » وقد قررت أن أساعدك فى تنظيم بيتك » .

وكانت عيناه تتأملان أشعة الشمس المتلقية على شعرها ، وقال : «لقد أوضحت لك أننى بقدر ما أود استضافتك إلى ما لا نهاية ، فإن من المستحيل هذا لكلينا » .

– إننى سمعت السبب فى رأيك ألا أمكث معك ، ولكن لعل

مسز بريجز أو هوكينز يصلح رفيقاً لرعايتى إذ كنت قلقاً بشأن سمعتك

قال بحدة : «لست قلقاً على سمعتى وإنما على سمعتك كما تعلمين » .

– هذا لا يعنى فى شىء ، فليس لك أن تشغل به .

– اسمعى .. أنك تتعمدين عرقلتى .. أعطنى اسم عمك ودعى الباقى لى .

– هذا شىء لا أعتزم أداءه .. اسمى « فانيا » ، وعندما خففت لنجدتى فإنك لم تسألنى عما يثبت شخصيتى ، وإنما تصرفت كبطل من الأساطير اليونانية .. أو هكذا خيل لى .

فابتسم كأنه عاجز إزاء إصرارها وقال : « إذا أصبت تذكر الأساطير ، فإن البطل كان يود أن يغصب الفتاة على الزواج منه ، وما أرانى زوجاً مناسباً لك اللحظة » . فقالت : « لماذا ؟.. إننى أفضلك بكل تأكيد على سير نيفيل ، وأود بكل ما أستطيع أن أفعل ذلك .. » وضغطت شفتيها بسرعة ، وكأنما همت بأن تذكر اسم الرجل الذى اعتزم عمها أن يزوجها به » ، فتحول تايسون إلى المكتب وجلس ، ففتح أحد الأدراج ، وأخرج ورقة ، ثم غمس الريشة فى المحبرة وقال : « لنكف عن التلاعب .. أخبرينى باسم عمك » .

كان يتكلم بشدة كثيراً ما استعملها إزاء جندى يحتاج إلى تأنيب ، ولكن فانيا اكتفت بأن تضحك وهى تجلس على حافة النافذة وقالت : « الآن تعود إلى لهجة المدرسات فى المدرسة .. ولكن ما أغبانى ..

إنك كنت قائداً على جنود مستعدين لأن يصكوا كعوب أحذيتهم ويحيوك قبل أن يطيعوا أتفه رغباتك . لكم يضايقك أنني امرأة ولست رجلا » .

كانت لهجتها ساخرة وشفتاها باسمة . فتطلع إليها تايسون وقال : « لست أعرف كيف كان تعليمك ولكن من الواضح أنه كان ينقصه هو .. الضرب للتأديب » . فسألته مستفزة : « أهذا ما تقترح أن أتلقاه منك ؟ » .. وقال : « هذا احتمال واضح » .

فصفقت فانيا بيديها وصاحت : « يا للعجب ! .. من سينجدني الآن ؟ إنك أسعفتني ليلة أمس في اللحظة الحرجة . ترى هل أستنجد بشهامة الشيخ ريجز أو أحاول إغراء هوكينز على أن يحيد عن ولائه الواضح لك ؟ » .. فصاح مغضباً : « إنك صبية مزعجة للأعصاب ، ولست أرى لماذا كنت من الحماقة بحيث أزج بنفسي معك » .

كان سلوك فانيا قد بدأ يشعره بالإحباط . وحملق فيها مغضباً ، وإذا ابتسامتها من طرف الحجرة تجعل غضبه يتبدد . فجلس في المقعد الذي كان يشغله والده ثم قال بلهجة مختلفة : « إذا أبيت أن تفكري في نفسك ، فسأدعوك لأن تفكري في . إنني لا أملك يا فانيا — إذا شئت الصراحة — أن أوفر لك متطلباتك .. لقد عدت إلى إنجلترا بمال قليل جداً لأجد البيت متداعياً ، وقد أنفق الزوجان ريجز كل مدخراتهما ولم يبقيا بالبيت إلا لأنه لا ملجأ لهما سواه . ولقد استغنيت عن هوكينز لأنني لا أملك أن أدفع له أجراً » .

وأمسك ، فأحست فانيا بمدى كراهيته لأن يقول هذا . ثم استطرد : « إنني سأجوس خلال البيت اليوم لأرى إن كان هناك ما يمكن بيعه ، ولكني أعرف أنني لن أجد ما يعود بجنيه أو اثنين » .

فسألته : « إذن ، فماذا ستفعل ؟ » .. وأجاب : « لا أدرى » ولكني أرجو أن أكون أوضحت لك أنني لا أستطيع أن أوفر القوت لأي فم آخر » .

وخال أنه كان فجاً في حديثه ، ولكنه كان يرى أن الحقيقة القاسية قد تضطر فانيا لأن تواجه الواقع فتعود إلى عمها أو أي قريب آخر يعنى بها . وسادهما صمت قصير ، قالت فانيا : « بوسعي أن أدفع مقابل إقامتي . ولست أملك مالا كثيراً ، ولكن مجوهراتي تعتبر ذات قيمة » .

فقفز عن مقعده ، وقال في جفاء : « إنني لم أبلغ المرحلة التي أضطر فيها لقبول نقود من امرأة » . فقالت مغضبة : « إنك تتكلم بغرور وكبرياء . إنني لا أقترح أن أعطيك نقوداً ، وإنما أعني أن بوسعي دفع نفقات إقامتي » .

— الجواب بصراحة مطلقة .. كلا .

— هبني أرفض الرحيل ، أتلقي بي إلى الثلوج وتغلق الباب دوني ؟

وقبل أن يجيب ضحكت قائلة : « لهذا البيت ميزة .. في وسع أي امرئ أن يتسلل خلال نافذة مكسورة أو الأبواب التي لا أقفال

وقبل أن يجيب ضحكت قائلة : « لهذا البيت ميزة .. ففى وسع أى امرئ أن يتسلل خلال نافذة مكسورة أو الأبواب التى لا أقفال لها »

لها » .. فصاح : « ألا تتكلمين كلاماً معقولا ؟.. ليس بوسعك البقاء هنا .. لقد أوضحت هذا ولا أصدق أنك تبغين أن تكونى إحراجاً لى » .

فسألته فى استخفاف : « أهنا كذلك .. حقاً ؟ » .

– ستكونين كذلك إذا لم ترحلى فوراً .. كونى عاقلة يا فانيا .. اعطينى اسم عمك ، أو اسم أحد من أقاربك قد يكون مستعداً لإيوائك » .

فتحولت عنه لتنظر من النافذة ثانية . فأدهشه فجأة أن يتبين كيف أنها صغيرة وطفلة ، فأدرك أن من العسير عليها أن تصمد إزاء عزم عمها على أن ينفض يديه منها بأن يزوجها ، كما أن من المستحيل عليها أن تدير شئونها بنفسها . وتقدم عبر الحجرة ليقف بجوارها وقال مترفقاً : « إننى أحاول أن أساعدك يا فانيا .. فأرجو أن تساعدينى أنت الأخرى » .

ولم تجب لفورها ، ثم تحولت بوجهها لتتأمله وقالت بصوت خفيض : « ليس هذا من الإنصاف ، إن بوسعى أن أقاومك عندما تأمرنى .. أما إذا تلطفت فالأمر صعب .. عسير جداً » .

قال : « لا أريد أن أكون غير معقول .. فلنرجئ هذا الحديث أربعاً وعشرين ساعة .. ليتاح لك وقت للتفكير فى حل » . ورأى وميضاً فى عينيها ، وقال : « إننى مستعد .. إذا وافقت » .

فبادرت للقول : « لست مهتمة كثيراً بمستقبلى قدر اهتمامى

بحاضرى .. وإنى لمتحررة من الماضى لأنك أنقذتنى » . فقـال : « هذه طريقة غير مجدية فى النظر إلى الحيـاة » ولكنى وعـدتك بأننا سنقضى أربعاً وعشرين ساعة قبل أن نعود للحديث فى هذا » .

صاحت : « شكراً لك .. فلنمض لتفقد بيتك حتى يحين موعد الغداء . إنه بيت رائع وأود مشاهدة كل ركن منه » . وعقـدت ذراعها فى ذراعه » وشرعت تجره إلى البـاب . ومع أن تايسون كان يشعر بأن عليه أن يقاوم تلطفها فإنه استجاب له .

* * *

سيطر عليهما الصمت وهما يعودان للبيت بعد الظهر . وكانت فانيا قد انتعشت حين انطلقا بعد غداء خفيف ليتفقدا الضيعة . ولقد أخبرها تايسون أنها تتألف من ألف « دونم » ، عنى والده بزراعة خمسمائة منها . أما الباقى فقد قسمه إلى مزرعتين ، إحداهما فى الجانب الشمالى ، والأخرى فى الغرب . ولقد اتجها للمزرعة الشمالية أولا ، لأنها أكبر المزرعتين .

وتذكر أن المزارع لم يكن يربى المـاشية فحسب » بل كان يستنبت فى الحقول قمحاً ذهبياً وشعيراً ناعماً ، كان أبوه يقول دائماً إنه أرقى نوع فى المقاطعة كلها . ولم يدهش « تايسون » حين وجد أن أرضه لم تترك بلا زراعة فحسب ، بل إن الحشائش البرية نمت فيها . وكان قد علم من بريجز أن شباب الضيعة انضموا إلى الجيش

ومنهم من عثر على عمل فى الضياع المجاورة بعد موت والده ، بينما عجز المسنون منهم عن العمل لدى الغير .

لقد قضى الليل بأسره مسهداً حائراً إزاء ما حدث بعـد موت أبيه — للمال الذى كان يمتلكه » والذى كان يزيد عما يفى بحاجاته دائماً ، وإن لم يكن ثروة كبيرة . وكانت الرسائل غير المنتظمة التى وصلت إليه أثناء الخدمة العسكرية غير ميسورة الفهم » لمجرد أنها لم توافه بالمعلومات التى كان ينشدها .

وقال لنفسه : « سأذهب إلى تشسينجتون غداً » . ولكنه رأى أن من الحكمة أن يأخذ فكرة عامة عن الضيعة أولا . ولم يكن ثمة شك فيما أصاب المزرعة الكبيرة التى فى الجـانب الشمالى . وكان مشغول الفكر وهو يمضى بجوار فانيا على أرض لم تحرث ولم تزرع » وحين رأى النباتات عن بعد ، وما كان الاقتراب ليزيدهما إلا رؤية لما أصاب سقوف البنايات والنوافذ وحالة التداعى الواضحة .

قالت فانيـا فى خفوت : « لكم تبدو داعيـة للأسف » ، أما تايسون فأدرك — من وجهة نظره — أنها تشعر بالخراب . وكم ارتاحت نفسه إذ وجد فى المزرعة الصغرى المزارع وقد شاخ » وزوجته يقيمان فيها . وقال المزارع : « لقد بذلت ما فى وسعى يا سيد تايسون ، ولكن كل شىء كان ضدى . فقد قتل ولداى — واحداً بعد الآخر — ولم أكن أملك ما أستأجر به عمالا ، فكنت وحدى أتولى كل شىء » ، وأردفت زوجته : « وما كان قوياً كما تعرف

يا سيد تابسون » .. ومضى الفلاح قائلا : « إننى لم أدفع إيجاراً ، فما كانت هناك نقود ، وما كنت أملك إجراء إصلاحات ما » .

وتأكد « تابسون » وهو يجيل بصره فى المزرعة ، أن أسطح البنايات ومخازن الغلال تحتاج إلى مئات الجنيهات لإصلاحها ، فضلا عن أن المنزل كان غير صالح للسكنى تقريباً . وقد أعطاه المزارع — عند انصرافه — قائمة بكل الإصلاحات المطلوبة بأسرع ما يمكن ولم يطعه قلبه على القضاء على أمل المزارع وزوجته ، إذ كانا يتطلعان إليه وكأنهما يعتمدان عليه فى إنقاذهما .

وسألته فانيا وهما ينصرفان على جواديهما : « ماذا تملك أن تفعل لأجلهما ؟ » .

قال فى غيظ : « لا شىء ولكنى لم أجد شجاعة لأن أخبرهما بذلك » .

وسادهما الصمت برهة قبل أن تقول : « أظنك كنت تطمع فى أن يساعدك إيجار المزرعتين فى أن تصلح بيتك » . فأجاب : « كنت أرجو أن يساعدنى لأن أقيم هناك فترة أطول ، ولكنى كنت مخطئاً كما ترين » . وكانت فى لهجته رنة لم تكن موجودة من قبل ، فرمقته فانيا بنظرة خفيفة قبل أن تشيح عنه ثانية .

وعندما تراءى لهما « ريفيل روبال » مرة أخرى ، أوقف جواده كان البيت يقوم على ربوة وأسطحه تبدو تحت السماء — على البعد — جميلة جداً . كان يقوم كما قام مئات السنين ، ولكن تابسون فكر

— فى غضب — أنه سينهار رويداً ، وليس بوسعه أن يفعل ما يوقف هذا . ولم تقل فانيا شيئاً ، وكأنها كانت تفهم ما يخامره . فلما عادا يواصلان التقدم على جواديهما ، أخذت تتحدث بمرح فى أمور لا تمت للضيعة ولا لشخصيهما . حتى إذا بلغا البيت ، كانت عينا « تابسون » قد فقدتا أسارير الألم . وقد جعلته فانيا يضحك .

وأسلما جواديهما للحظائر ، ولم يريا أثراً لموكينز . فأصرت فانيا على أن تنظف « فيتوريا » بنفسها وهى تقول : « كنت دائماً أعتنى بجوادى الصغير ، وأنا صغيرة . ولعلى حين لا تعود راغباً فى بقائى — أجد عملا فى حظائر لجياد السباق » . فقال : « ما قلت أبداً إننى غير راغب فى بقائك . وإنما قلت : إن هناك أسباباً وجيهة لا أود بقاءك » .

وكان قد فرغ من جواده ووقف يرقب « فانيا » وهى تعنى بالجواد الآخر . فابتسمت وقالت : « إنك دقيق فى اختيار كلماتك ، وهذا ما يليق بك » . فسألها : « ماذا تعنين بهذا ؟ »

— أرى أن ما قلته قد يبدو مجاملة وهو العكس تماماً .

فقال : « لقد أخبرتك من قبل أنك طفلة مزعجة ، ولا أطمئن أبداً إلى مماكستك أو جديتك » .

فأجابت : « إننى جادة إذ أقول إننى أعجب بالكثير عنك ، مما سأخبرك به يوماً ، إذا كنت حفياً بى » . ورد قائلا : « إنك تثيرين غيظى ، ومن الخير لك أنك فتاة ولست فتى . هيا بنا ، فإنى

جائع . ولنأمل فى أن نجد الشاى بانتظارنا عند مسز بريجز » .

وكان الشاى فى انتظاره ، وقد أعاد لتابسون ذكريات الشاى من قبل . ورأى فانيا تقبل على لقم من الخبز المصنوع فى البيت ، تلتقطه من الفرن . حتى إذا فرغا من الأكل سألته : « ما الذى ستفعله الآن ؟ » .. فأجاب : « سأتم تفقدى للبيت ، لأننى أعتزم الذهاب غداً إلى كانتربورى لأقابل المحامى » .

— لماذا لم تره من قبل ؟

— لأننى وصلت بعد ظهر الأمس فقط . قبيل ذهابى إلى الحانة بقليل ، مما أدى إلى نتائج فادحة كما تعلمين .. من وجهة نظرى .

— ما الذى جعلك تزور المنزل ؟

— أظننى أردت أن أتخلص من أحزانى بعد أن رأيت « ريفيل رويال » .. ومن المؤكد أننى لم أكن أعتزم توريط نفسى فى الأحداث المؤسفة التى أعقبت رغبتى فى كأس من النبيذ .

— آأسف أنت لأنك .. لم تمكث فى البيت ؟

كان يدرك أنها لم توجه السؤال إلا لرغبة صادقة فى أن تعرف الجواب ، وعينيها فى عينيه لأنها كانت تخشى أن يكون نادماً على أنه خف لنجدتها . فأجاب : « إننى سأفسدك بالتدليل حين أخبرك بأننى مسرور جداً بأننى ذهبت للحانة أولا ، ثم لأننى لم أبرحها قبل انصرافى بعشر دقائق » .

فأطلقت صرخة قصيرة ، وصفقت قائلة : « هب أنك كنت قد انصرفت ، وهب أنك لم تسمع سير نيفيل وهو يدلى بتعليماته لمعاونيه .. فماذا كان يحدث لى ؟ » .

لم يكن فى سؤالها رنة من خوف حقيقى . وبادر قائلا : « دعك من هذا .. إننى كنت هناك وعسى أن يكون سير نيفيل حالياً تحت تأثير صداع قاس وألم فى فكه » .. فأطلقت ضحكة قصيرة وقالت : « إنك لكمته بشدة ، ولن يدهشنى أن يكون قد فقد نصف أسنانه » .

قال : « لا أرجو سوى أن أكون قد أطحت بها جميعاً .. سيعلمه هذا — كما لم يعلمه شىء — أن يكون حذراً فلا يسمع أحد خططه حين يحاول اختطاف سيدة جميلة » .. فسألته بصوت خافت : « هب أنه يحاول العثور على ؟ » .

— ما أظنه سيبحث عنك فى هذه القرية .. الأرجح أنه سيبحث فى مكان أبعد .

— أجل ، ولكنى أرى من الخطأ أن أمضى إلى أى مكان يرانى فيه أناس آخرون .. خشية أن يسأل عنى .

فرمقها بحدة ، وهو يظن أنها ربما تحاول أن تقنعه بوجوب الاستمرار فى إخفائها لوقت أطول مما كان يعتزم . ثم أدرك من أساريرها ، ومن ومضات عينيها اللتين كانتا صافيتين تفيضان شباباً ، أنها كانت فى خوف من سير نيفيل ، بقدر استبشاعها للرجل الذى

كان عمها يريد أن يزوجها منه ، فسأل نفسه : « ما الذى أفعله إزاء هذه الفتاة ؟ » .

ولم يجد جواباً فى لحظته تلك .

* * *

تركه لقاؤه بمستر تشيسنجتون المحامى ، فى هم أسوأ مما كان فيه بالأمس . كان قد ركب جواده إلى « كانتربورى » ، ولم تنقض دقيقتان على وصوله لمكتب المحامى ، حتى اقتيد إلى حجرته الخاصة التى تذكر أنه زارها فى مناسبات سابقة ، عندما كان يأتى مع أبيه .

كان المحامى عجوزاً صغير الجسم ، أعجف تماماً ، معروق الوجه ، أشيب الشعر ، وقد بدا لم يتغير كثيراً خلال السنوات الثلاث عشرة التى غابها « تايسون » . وقد استقبل تايسون صائحاً : « أهلا بك يا ميجرديل . لكم يسرنى أن أراك .. إننى مبتهج حقاً . والواقع أننى كنت موقناً بأنك لن تلبث أن تعود بعد أن انتهت الحرب » .

وقال تايسون وهو يجلس : « إننى عدت فى أسوأ ظروف » ..

فهز المحامى رأسه قائلا : « كنت أخشى إلى حد كبير من أنك ستبهت إزاء ما وجدت فى « ريفيل رويال » .. وأؤكد لك أننى بذلت كل ما كان بوسعى لأثبت زواج أبيك وأمك » .

— لست مهتماً بإثبات شرعية زواجهما ، وإنما بتبين مصير أموال أبى .

— هذا لغز عويص ، لأنه لا يبدو أن ثمة تفسيراً له .

— أخبرنى بما حدث ، فأنا — كما تدرك — فى جهل تام .

— لقد أوضحت كل شىء فى خطابى لك .

— لابد أن هذا كان فى خطاب لم أتسلمه ، فقد كنا فى تنقل مستمر ، وكانت الرسائل من إنجلترا تتأخر شهوراً أو لا تصل إطلاقاً فحدثنى عما حدث .

— كان أبوك — كما تعلم — يؤمن بما يسمى بالشعور الباطنى .. لاسيما فيما يتعلق بالمسائل المالية .

كان « تايسون » يعرف ذلك .. وبهذه الإيعازات الداخلية جمع أبوه ثروته أولا .

وعاد المحامى يقول : « وقبل موته بحوالى ثلاثة أشهر ، تولاه إيعاز بأن مصرف « سوذرن كاونتى وكانتربورى » على وشك إغلاق أبوابه .. وقد جاءنى يوم ذهب إلى المصرف وسحب كل ما يمتلك فيه .. كل مليم — على حد تعبيره . وقال لى : « إذا كانت لك فى هذا المصرف أموال فأنصحك بأن تسحبها ، فأنا أوقن — فى قرارة نفسى — بأنه سيفلس » .

فتساءل تايسون : « هل حدث ذلك ؟ » .

— لم أكد أصدق عينى عندما قرأت فى الصحف — بعد شهر — بأن المصرف لم يستطع الوفاء بالتزاماته .. كان أبوك على صواب تام .

— وأين أودع أمواله ؟

- هذه هى النقطة المهمة .. إنه لم يخبرنى قط .

وساد الصمت لحظة . ثم تساءل تايسون : « أواثق من أنه لم يقل شيئاً يوحى إليك بما كان يعتزم أن يفعله ؟ » .

وهز المحامى رأسه وقال بوضوح : « أؤكد لك أننى استعدت فى ذهنى مراراً ما دار بيننا .. استعدته ألف مرة ، محاولا أن أتذكر ما يوحى لى بفكرة عما اعتزم ، وأحسبنى كنت إذ ذاك مبهوتاً بما قاله ، فلم يخطر لى أن أسأله » .

- وهكذا اختفى المال كما اختفى كل ما يشير إلى زواج أبى وأمى .

- لقد قمت بالسؤال فى كل كنيسة مجاورة .

- إنهما لم يتزوجا فى المنطقة . فقد اختفيا عقب فرارهما لعدة سنوات ، ثم عادا ليقيما فى « ريفيل رويال » .

- هذا ما فهمته دائماً .. إنهما رحلا إلى الخارج .

- أصبت .. ولعلهما غادرا إنجلترا قبل زواجهما .

- كان من المستحيل أن نتحرى فى « كاليه » أو فى أى مكان بفرنسا .. ولكن هذا ممكن الآن . بعد أن انتهت الحرب .

ولاذ « تايسون » بالصمت يفكر فى أن أباه كان خليقاً بأن يتزوج أمه فى أول فرصة . فقد كان يحبها بلوعة كانت تحرضه على احترام الزواج بدون بركات الكنيسة . ثم إنها كانت ابنة قس ..

وسأل المحامى : « أكانت كنائس المنطقة تزوجهما دون إذن والد أمى ؟ » .

- أظن أن الأمور كانت أكثر تساهلا فى ذلك الوقت ، فإن تشريع الزواج لم يكن قد صدر إذ ذاك ، وكانت هناك معابد كثيرة يجرى قساوستها مراسم الزواج دون أن يعنوا حتى بتسجيلها .

- هذا ما خطر لى حين كتبت لى وأنا فى فرنسا بأنه لا يوجد أى سجل للزواج .

قال المحامى بصوت فى رنة الحرارة : « إننى بمعرفتى لأبيك يا ابنى العزيز ، أوقن تماماً أنه وأمك قد تزوجا زواجاً سليماً ، ولكنك تعرف مثلى أنه ما من دليل قانونى لإثبات ذلك » .

- أعرف هذا ، لاسيما إذا كان هناك شخص مثل عمى حريص على أن يستحوذ على اللقب وعلى الأراضى دون حق .

كان عنيفاً فى تعبيره ، فقد كان يكره عمه ويعرف تلهفه الطامع فى انتهاز الفرصة ليستولى على مركز لم يولد له . وكان أى شخص يتريث حتى يعود « تايسون » إلى إنجلترا ليثبت حقوقه ، ولكن عمه لم يكن كذلك ، وكأنما كان مستر تشيستجنون يقرأ أفكاره فقال بهدوء :

- أرجو وقد رجعت يا ميجر أن تبحث لا عن حقك فى الوراثة فقط ، وإنما لتجلو أى شىء عن أمك .

– هذا ما أعتزم، ولكن المشكلة هي كيف أعيش خلال ذلك.

– إنني أتفهم مشكلتك ولكني اتصلت بكل مصرف في الإقليم إذ كنت أعتقد أن أباك كان خليقاً بأن يذهب إلى أي مصرف كبير معروف السمعة .. كما أرسلت اثنين من رجالي إلى « ريفيل رويال » لينقبا في كل ركن من السقف إلى القبو .. والعجيب أنهما لم يعثرا على أية أوراق ذات قيمة .

– أتظنه يكون قد خبأها ؟

– أتصور أننا سنجد كل شيء عندما نعثر على النقود .

– ألديك فكرة عن مقدار ما يجب العثور عليه ؟

– مبلغ محترم . فإن أباك لم يكن غنياً فحسب . ولكنه كان بارعاً جداً – وقد علمت ببعض الاستثمارات التي ساهم فيها – وكانت حكيمة دائماً ، تبرر باستمرار « إيعازات » حسه الباطني .

– أحسب أنه لو لم تنذره « إيعازاته » فترك نقوده في مصرف « سوذرن كاونتي وكانتربوري » لكنت في نفس وضعي الحالي .

– قد تكون هذه نظرة فلسفية ، ولكنها لا تحل مشكلتك .

– كل ما أملك الآن أن أقوم بالتنقيب ، وآمل أن أكون أكثر توفيقاً .

– سأصلي ليتحقق هذا . فقد عرفتك منذ كنت صبياً ، وتتبعت مسار حياتك باهتمام عظيم . وعندما سمعت بحصولك على وسام في معركة سالامانكا ، اغتبطت وكأنك ابني .

– أشكرك .. وأشكر لك ما فعلته من أجلي . ويؤسفني أن أقول : أن لا أمل في اللحظة الراهنة لأني أستطيع دفع أتعابك .

فقال مستر تشيبينجتون : « لست أود مساعدتك طمعاً فيما أتقاضاه يا ميجر . لقد كنت مولعاً بأبيك ، وأود أن أرى « ريفيل رويال » يستعيد ما كان عليه عندما كان يقيم فيه » .

– هذا ما أود .. وأكثر من ذلك أريد إثبات أن أمي لم تكن بالخسة التي دفعها بها عمي حين ادعى أنني ابناً غير شرعي .

– اسمح لي بأن أعدك بأنني سأساعدك بكل ما في وسعي .

* * *

لم يكن تايسون – حين بلغ البيت – يشعر بأن لقاءه بالمحامي بعث فيه أملا فحسب ، بل شعر كذلك بتصميم بث فيه طاقة لم يشعر بها من قبل .. لن يقبل الهزيمة ، ولن يسمح لعمه بالانتصار نتيجة تصرف شعر بأنه دنيء لدرجة لا سبيل لوصفها . فإن أي امرئ كان يعرف أمه ، ويعرف أباه ، يدرك أن مما لا يتفق وأخلاقهما أن يعيشا فيما كان معروفاً بأنه « خطيئة » وينجبا ابنهما الوحيد دون أن يكون جديراً بأن يحمل اسماً .. كان هذا مخالفاً لكل غريزة في جسميهما وكل حافز في نفسيهما .

لقد تعلم « تايسون » الصلاة على يدي أمه ، وإنه ليذكر دائماً ذهابها إلى الكنيسة كل يوم أحد « وأنها كانت تصحبه عندما شب

على قدميه ، ولكنه لم يذكر ذهاب أبويه مرة إلى قداسات كنيسة القرية . فما كان من المتصور أن يركعا كزوجين أمام المذبح . لهذا كان يقول لنفسه : « لسوف أعثر على الدليل على زواجهما ، ولو قضيت عمرى بحثاً عنه » .

وأدرك إذ بدا له « ريفيل رويال » أنه سيكرس نفسه – كما كرسها فى الحرب – للتغلب على الطغيان . وساق جواده إلى الحظيرة فاطمأن إلى وجود تبن وماء كافيين ، ثم انصرف إلى البيت .

وسره أن وجد فانيا هناك . وكان يدرك أنها تترقب لتسمع ما جرى . وأحس بأنه كان يتوق لشخص يشاطره الأخبار السيئة . وما إن دخل البهو ، حتى ألفاه أكثر نظافة مما كان ، ورأى عند أول السلم وعاء كبيراً مليئاً بالزهور .. تماماً حيث كانت أمه تضع الزهور .

وقالت فانيا : « إننى أعددت الزهور لأجلك .. وقد وجدت بعمار فى صواناً يضم الأوعية الخزفية ، فقمت بغسلها جميعاً .. وإنك لترى الفارق الآن » .. فقال : « لا أدرى لماذا لم أتبين أن كل هذه الأشياء كانت غير ظاهرة .. فكأن الحجرة فارغة وكئيبة » .

وكأنها تذكرت سبب ذهابه لكانتربورى ، فسألته : « هل من أنباء لديك ؟ » .. فأجاب : « أجل ، ولكنها ليست مجدية كثيراً .. لقد أخبرنى مستر تشيسينجتون أن أبى سحب كل ثروته من المصرف إثر إيحاء نفسى بأن المصرف سيفلس ، وهذا ما حدث فعلا .. ولكن ما من شىء يخبرنا أين وضع نقوده » .

وحلقت فيه قائلة : « هذا عجيب – أأدرك أمر المصرف بإيعاز باطنى ؟ » .

– كان لأبى بصيرة أشبه بالتنبؤ إزاء هذه الأمور .

– إذن ، فهناك أمل فى أن تكون لديك هذه البصيرة .

فرمقها متعجباً وقال : « أتظنين هذا النوع من الهبات ينتقل من شخص إلى آخر ؟ » .

– لم لا ؟.. إذا كان أبوك من الحذق بحيث نقل نقوده قبل أن يفقدها ، فلابد أن تكون من الحذق بحيث تعرف أين خبأها .

– بوسعى أن يكون الأمر بهذه البساطة ، لقد كنت أعتصر مخى لمعرفة أين أبحث ، ولكن المحامى تحرى فى كل المصارف المحلية فلم يصل إلى شىء » .

– إذن ، فهى ليست فى مصرف كما ينبغى « فأين تكون ؟

– أتكون هنا فى البيت ؟.. لقد جرى البحث من « السطح حتى القبو » كما قال المحامى .

– كان الذين فتشوا أغراباً .. لهذا لم يجدوا شيئاً .. لابد أن أباك أخفاها ببراعة تامة ، فأنت الذى يجب أن تعثر عليها .

– إننى أصارحك بأننى لا أدرى أين أبدأ .

– فكر .. واعتقد أنك ستصل إلى جواب .. ولكنك لابد متعب وجائع بعد رحلة طويلة كهذه ، وقد ذهب هوكينز ليعد لنا

الشاى .. وقلت : إننى سآخذه فى الحجرة الصغيرة التى أعتقد أن أمك كانت تتناول الشاى فيها ، وربما الإفطار كذلك ، لأن الشمس تملؤها .

– كيف عرفت هذا ؟

– قلت إن لى بصيرة أنا الأخرى .. لا سيما إزاء هذا البيت الجميل . لقد توصلت إلى كنز .. وكل هذه الأدوات الخزفية فلماذا أعجز عن إيجاد أشياء أخرى ؟.. ولكن هذا سيستغرق وقتاً .

فصاح : « الآن فهمت غرضك .. إنك تعنين أننى لا أستطيع إقصاءك وأنت منهمكة فى البحث اعتماداً على بصيرتك وإيعازاتك الداخلية » .

– تماماً .. ولو رحلت فقد تطاردك الفكرة بأنك خسرت كل شىء بقسوتك نحوى .

وابتسم وهما يتجهان إلى الحجرة الصغيرة ، حيث كان هوكينز يضع أدوات الشاى .. فقال له : « أرى أنك أجهدت نفسك يا هوكينز وحققت نتائج فوق ما كنت أتصور » . فابتسم الرجل إزاء هذا التقدير . وإذ انسحب من الحجرة ، قال تايسون : « سأجرى حديثاً جاداً مع هوكينز كذلك ، وإن كنت أشعر بأنه سيعاف مثلك الرحيل » .

قالت قانيا : « إنه مثلى لا يعتزم الرحيل . لقد تحدثنا فى هذا بعد ظهر اليوم ، واتفقنا على أن نعنى بتنسيق الأمور لك » .

– أما وقد قررتما كل شىء لى ، فأظن أنه لا حساب لأننى أمتلك البيت .

– إننى وهوكينز نود أن تفعل ما فيه الخير لك وللبيت .. إننى شخصياً أراه أجدر مكان بالإعجاب ، وأكثر الأماكن التى رأيتها فى حياتى جاذبية ، وأنا مثل هوكينز أريد أن أراه نظيفاً وجميلا ، قبل أن نشرع فى التفكير فى أى شىء آخر .

– إنك تلفيننى حول أصابعك .. هذا بصراحة التعبير الصحيح ، ولست أرتاح إليه .. لقد اعتدت دائماً أن أعنى بشئونى ... واعتدت دائماً أن أكون الآمر فيها .

– أوقن أن هذا مسجل عليك ، ولكن لم يعد هناك طوابير جنود تأمرها . لم يعد لك سواى وهوكينز والزوجان بريجز ، ففكر فيما يلحق بك لو فقدت نصف قوة هجومك .

– لن أسمح بأن تجرينى إلى مبارزة كلام .

قالت : « إنك شديد الغرور » .. فقال : « بل شديد الحذر .. ولكم يسرنى أننى أحبه مثل حبى له » .

– إذا كان يحبك ، فأرى أنه سيهديك إلى طريقة لاكتشاف المخبأ .

– ماذا يؤكد لنا أنه يخبئ شيئاً .

– إنك لا تحتاج إلا للإيمان والأمل ، وما دمت تبدو مهموماً

فلابد أن تأخذ قطعة من فطير الشيكولاتة التي صنعتها لك مسز بريجز
إنها أخبرتني بأنها كانت المفضلة لك وأنت صبي ، وإنما اعتادت
أن كانت تصنعها لك دائماً إذا تعرضت يوماً لعقاب ، لتدخل السرور
على نفسك .

فصاح تايسون : « يا الله ! .. لقد نسيت هذا . إنني أتذكر
الآن .. عندما كنت أحرم من العشاء لذنب ارتكبته ، كانت مسز
بريجز تتسلل وتدفع خلال باب حجرتي بقطعة كبيرة من الفطيرة » .

وضحكت فانيا قائلة : « إنها امرأة رائعة » وإنها لزاخرة
بالقصص عما كنت تفعله وأنت صبي ، وكيف كانت أمك كريمة
ولطيفة ، يحبها كل امرئ ، وأخبرتني مسز بريجز أن كل أهل
القرية بكوها عندما ماتت » . وكان صوت فانيا حنوناً ، فعز على
تايسون أن يتكلم لبرهة . فهو كان يتعمد ألا يتحدث عن أمه منذ
عودته ، لمجرد شعوره بأنه يكون قاسياً لو سمع كيف ماتت ،
ولإدراكه بأنها لن تعود موجودة . وتبين الآن أنه لن يستطيع أن
يحدث فانيا بالفرية التي أحاط بها أقاربه اسم أمه .. وتذكر مطالبة
عمه فور موت أبيه بالمستندات التي تثبت زواجهما . ولعل عمه ظن
أنهما لم يستطيعا عقد الزواج عندما هربا ، لأن أمه كانت قاصراً .
هكذا كان نوع الأفكار التي تخطر لعمه ، فكان هذا حافزاً لأن ينتهز
الفرصة ، ليعلن أحقيته للقب الرفيع فيصبح سادس « لورد

ويلينجديل » . برغم أن تايسون كان يوقن بأن اللقب من حقه ،
ولكنه لم يكن يهتم إذ ذاك إلا بأن يبرئ سمعة أمه .

لعل فانيا كانت على صواب في أن البيت المتداعي يضم الأوراق
التي يستطيع أن يواجه بها عمه ويضطره إلى الاعتراف .. فقال لنفسه :
« لابد أن أهتدي لمخبأ أبي .. لابد » .

وكانت فانيا ترمقه . وكأنما قرأت أفكاره فقالت : « إنك
ستنتصر .. كيف يمكن أن تنهزم ؟ » .

* * *

الفصل الرابع

هبطت فانيا السلم وهى تحكم أزرار ثوبها ، إذ شعرت أنها تأخرت فى نومها . فقد نامت فى ساعة متأخرة من الليلة السابقة .. كان « تايسون » قد قرر — وأقرت هى رأيه — أنها خير مكان للتنقيب عن نقود أبيه ، هى حجرة المكتب .. وقال : « لو كنت أخبئ شيئاً فى هذا البيت لوضعته خلف المكتب ، أو لعل هناك صواناً لا أتذكره ، كذلك الذى وجدته أنت » . فأردفت : « سننزل الكتب من أماكنها واحداً بعد الآخر ، ونرى هل وراءها شىء ؟ » .

وأصر قبل أن يشرعا فى أن تستعير من مسز بريجز مرولة ، فقالت مبتسمة : « ها قد عدت تخشى على ثوبى ثانية » . فقال : « إنه بديع جداً ، ولا أود أن تتلفيه بسببى » .

وأرادت أن تسأله أهى بديعة هى الأخرى ، ولكنها أحست بخجل .. وإن لم يكن يؤذيه أن يوجه إليها مجاملة من وقت لآخر ، وما كانت تملك أن تقاوم الشعور بأن أى رجل آخر — ولو كان سير نيفيل المقيت — كان خليقاً بأن يطريها بمجاملة تبعثها على الاستحياء .

ونظر إليها بعينيه الشهباوين ، فلم تدرك أكان يعجب بها أو ينتقدها . ثم ألحت على نفسها باللائمة لأنها أنانية .. كان من الطبيعى أن يشغل بمتاعبه عنها .. مهما تكن جميلة . ومع ذلك فإنها عنيت

بمظهرها .. كان ثوبها جميلا وغالياً ، اختارته زوجة عمها لترتديه فى الحفلات التى ستقام فى لندن إذا ما أعلنت خطبتها ، ومن ثم شعرت فانيا بأنها تكره الثوب وكل الثياب التى ابتيعت لهذا الغرض . ولكنها أدركت حين رأته معلقاً فى حجرة أمه ، أنه سيظهرها كأنها أميرة فى قصة خيالية . وساءلت نفسها عما يدعوها للمحافظة على أثوابها ؟. ولكنها سرعان ما تبينت أن البحث عن «الكنز المفقود» عمل قذر جداً . فإن الغبار المتراكم على الكتب لسنوات ، جعل يديها ويدى « تايسون » ، بل وثيابهما ووجهيهما قذرين .

كان من المستحيل أن يفرغا من المكتبة فى أمسية واحدة ، فقد رأى « تايسون » أن يؤديا مهمتهما بنظام » فيفرغا الأرفف واحداً بعد الآخر ، ليتأكدا من أنها لا تخفى وراءها شيئاً . ولكنهما لم يفوزا بطائل . وبعد ساعات خطر لفانيا أن تقول : « لقد شغلنا بالبحث عن الكنز حتى أننا لم نفحص الكتب نفسها ، فلابد أن بعضها ثمينة القيمة » . فقال : « فكرة وجيهة حقاً . وكان خليقاً أن أدعو خبيراً من لندن ليفحصها . ولكن هذا يحتاج لنقود كما تعلمين » .

وضاعفا جهودهما فلم يفوزا بغير مزيد من الغبار . وضحكا لمظهر كل منهما قبل أن يتهيا إلى الصعود إلى الطابق الأعلى .

وفتح تايسون حجرة أمه قائلا : « أستحسن أن تنامى هنا ، وآمل أن تكونى قد شعرت الآن بأمان » ولم تعودى خائفة » . فردت بصوت خافت : « إننى أشعر .. بأن أملك .. ترعانى » .

– إننى واثق من ذلك ، فقد كانت تود دائماً مساعدة غير السعداء أو من يعانون متاعب .

– إذن ، فأنا موقنة من أنها ستساعدك .

وأغلق الباب منصرفاً إلى المخدع المجاور . وسمعته يتحرك بداخلها ثم بدأت تتأهب للنوم .

وإذ اندفعت للحجرة التى كان فيها إفطارهما ، لاحظت أنه فرغ من تناول طعامه وتأهب للوقوف .

قالت وهى متسارعة الأنفاس : « آسفة لتأخرى .. إننى رأيت ليلة أمس أعجب حلم » .

فقاطعها : « لحظة واحدة لأخبر بريجز بإحضار فطورك، فقد حرصت على أن يبقى دافئاً » .

وسمعته ينادى بريجز ، فجلست إلى المائدة وتناولت قطعة خبز محمصة ، فغطتها بالزبد الذهبى الصفرة ، الذى اشتراه هوكينز من مزرعة مجاورة ، وهى تتصور مدى سرور « تاوسون » لو كان الزبد من مزرعتيه، ولو كان لديه ماشية ترعى على جانبى الجدول المتعرج الذى يجرى فى ضيعته . وقالت له حين عاد : « قلت مساء أمس إنك تريد ركوب جوادك أولا فى الصباح » :

– رأيتها فكرة جيدة أن نقوم برياضة قبل انهما كنا فى استطلاع ما فى البيت .

ثم أردف : « يسرنى أنك غسلت وجهك ، فعندما فرغنا

ولكنها سرعان ما تبينت أن البحث عن « الكنز المفقود » عمل قذر جدا

بالأمس خيل إلى أننا من عمال تنظيف المداخن » . فقالت : « هذا ما ظننت حين تأملت وجهي فى المرآة » .. وقال تايسون : « هـذا يذكرنى بأن آمر بتنظيف المداخن قبل أن نحاول إشعال النار فى مدفأة أية حجرة » .

وأقبل الشيخ بريجز بطبق يعلوه طبق آخر ، ليظل البيض ولحم الخنزير دافئاً . فقالت فانيا : « شكراً لك .. يؤسفنى أن أكون مصدر إزعاج ، ولكنا اعتدنا فى بيتنا أن تكون صحاف الفطور على فتيل مشتعل فإذا تأخرت فى النوم ظل الفطور دافئاً » .

ظل بريجز واقفاً بجوارها ، وراح يمر براحته على جبينه ، ثم قال : « حقاً .. ها أنذا أتذكر .. إن رأسى أصبح كالمنخل ... لقد نسيت الفضيات تماماً .. إننى وضعتها حيث ظننت أنها ستكون بمأمن ، بعد موت السيد ، وتعودت عدم استعمالها » .

فتساءل تايسون : « الفضيات ؟.. كان ينبغى أن ألاحظ أنها أكبر مما رأيت بكثير .. ما الذى حدث للشمعدانات » ولأطباق تقديم الطعام ؟ » .. فأجاب بريجز : « إنها ولابد فى القبو . فقد كنت أحفظها حيث لا يصل إليها لصوص » .

وتطلعت فانيا إلى تايسون وقد أومضت عيناها ، فقال بصوت خافت : « إنها ليست فيه ، فقد بحثت فيه بالأمس » ، ولكن بريجز قال : « إنك لم تبحث فى المخزن الجديد » .. فبعد ذهابك للحرب ، قال لى السيد الكبير : « سيتعذر شراء النبيذ ونحن نحارب الفرنسيين ،

فعلينا توفير مخزون جيد للسيد تايسون عندما يعود ، بعد نصر الجيش وهزيمة بونابرت . فاجتهدنا جميعاً لتدبير ذلك .. تعال سأريك إياه إذا ما أحضرت المفتاح » .

وبينما خرج الشيخ ، قفزت فانيا قائلة : « لعل أبوك استخدم هذا المخزن مخبأ كذلك » .

وتبعا بريجز إذ قادهما إلى سلم يهبط إلى أقباء البيت ، وفانيا تمسك بيد تايسون خشية أن تنزلق . وظلوا يهبطون كأنهم يسعون إلى أحشاء الأرض .. وكان القبو بارداً ، ومنخفض السقف ، ولم يكن فيه سوى أرفف فارغة وعدد من البراميل الخشبية الكبيرة .. وكانت هذه تحوى الجعة التى كان الخدم يتناولونها مع وجباتهم فى عهد أبيه .

كان هذا هو القبو الذى عرفه تايسون ، ولكن بريجز سار إلى أقصى المكان حيث كان ثمة باب خلف صناديق خشبية لم يفطن إليه تايسون ، فأولج فيه مفتاحاً ، ولكن القفل استعصى عليه إذ كساه الصدأ فتولى تايسون عنه المفتاح ، وضغط بيديه حتى دار فى القفل .

وفتح الباب ، فبدا — على ضوء شمعة — ما يشبه بالكهف الكبير ، ولم يصدق تايسون عينيه إذ رأى رفوفاً متراكبة على كل من الجانبين مليئة بزجاجات النبيذ .

وقال بريجز : « لقد استغرقنا وقتاً لإعداده وفقاً لما أراد السيد الكبير » .

وصفقت فانيا صائحة فى ابتهاج : « قبو كامل ملىء بالنبيذ ما كنت تعرف بوجوده . ما أروع هذا ؟.. كنت أتساءل : أتقنع بشرب الماء على المائدة » . فتلفت تايسون حوله وقال : « لا أكاد أصدق هذا » .. وقال بريجز : « وهنا الفضيات يا سيد تايسون » . وسار إلى الطرف الذى انتهت عنده الأرفف ، فرأت فانيا وتايسون كومة كبيرة من الأشياء ملتفة بنسيج أخضر سميك ، فالتقط تايسون شيئاً من القمة « فرأت فانيا صفحة كبيرة للحلوى مسودة اللون ، ولكنها تنطق ببراعة فائقة للصانع .

قال تايسون : « إننى أتذكر هذا .. كان على المائدة دائماً فى الحفلات » وكان بريجز يعطينى قسطاً من محتوياته » . فقال الشيخ : « تصور أنك تتذكر هذا الآن .. كنت تأتى لحجرة إعداد الطعام ، وأنت بعد صغير . وتطلب شيئاً حلواً » .. فأردف تايسون : « وكنت لا تعطينى حلوى فحسب ، بل تعطينى عنباً » وإذا كنت حسن المسلك تعطينى بعض الخوخ الناضج » .

وركعت فانيا تجذب القماش الأخضر ثم صاحت : « ها هى ذى أطباق التقديم ، وأعتقد أنها كانت تستخدم للفطور ، وتحتها فتيل متقد ليحفظها دافئة » .

— سنأخذها للطابق الأعلى .. ولكننى أحسبك ترين أنها ستحتاج لجهد فى سبيل تنظيفها .

— ولأنك تبين أنك بفضل إشارتى البسيطة وجدت نبيذاً كافياً لإغراق أحزانك ، فلابد أن تساعدنى .

وابتسمت له ، فابتسم تايسون .. وبدا لها فجأة أنهما يتصرفان كما لو كانا زوجاً وزوجة يعدان بيتهما . وكأنما خطرت الفكرة ذاتها لتايسون فقال : « سأطلب إلى هوكينز نقل هذه الأشياء .. أما الآن ، فإن جوادينا فى الانتظار » .

وعندما اجتازا باب القبو ، أغلقه ودس المفتاح فى جيبه . وإذ بلغا قمة السلم قال : « يحسن أن تتمى إفطارك » . فأجابت : « الانفعال يحول دون أن آكل أو أشرب . لقد أخبرتك بأننى سأساعدك للعثور على كنوزك ، وهذه هى النقطة الثانية فى قائمة البحث » .

فتطلع إليها متسائلا وإذا بها تقول : « أنسيت الأدوات الخزفية ، إنك قلت بنفسك : إنك لم تتذكر وجود صوان يحتويها » .

وأسرعت فانيا فأحضرت قبعة ركوب الخيل والسترة وكانت قد تركتهما قبل تناول الفطور ، فارتدتهما وهى ترى — من نظرة سريعة إلى المرآة الذهبية الحواف — أن زرقة ملابس الركوب كانت لائقة بها ، وكذلك قبعة الركوب بالخمار الرقيق الشفاف يتطاير خلفها .. وهمست لنفسها : « إننى أساعده .. لقد بدأ يرانى مفيدة » .

ولكنها كانت تدرك أن تايسون يكره أن يتركها فى الانتظار ، فأسرعت إلى البهو ، حيث ناولها سوطاً رقيقاً للجواد وقفازين لها . ورأت — وهو يسير أمامها هابطاً السلم ، حيث كان هوكينز ينتظرهما

بالجوادين – أن ثيابه للركوب كانت قديمة ، وكانت مسز بريجز قد أخبرتها أنها كانت لأبيه . ومع ذلك فقد خيل إليها أن ليس من رجل يبدو مليحاً وواثقاً من نفسه على الجواد مثله . كان فيه شيء يحفر طابعاً في النفس ، لاسيا وهو يضع قبعته مائلة إلى أحد جوانب رأسه الداكن الشعر .

ووجدت نفسها تقول : « سأسابقك .. فإن رئتي لا تزالان مليئتان بغبار كتب الأمس » . وانطلقت راكضة .. كانت تدرك أن سالامانكا قادر على أن يهزم فيتوريا ، ولكن نزوة جامحة دفعتها لأن تبز ببراعتها رجلا كانت تدرك أنه فائز دائماً في كل ما يتولاه .

وبعد الركض بالجوادين لمسافة تجاوزت ميلا ، أوقفا الجوادين وقالت فانيا : « الآن أشعر بتحسن !.. أما كان مثيراً يا تايسون العثور على هذا النبيذ البديع كله ؟.. تصور كيف ستتمكن من الانتشاء دون أن تتكبد مليماً ! » .. فأجابها : « لست أعتزم أن أنتشي ، ولكنها متعة غير مرتقبة أن أجدني مالكاً لشيء ذي قيمة » .

– ليست هذه سوى البداية .. إن البيت أشبه بكهف علاء الدين ، وما علينا إلا التوصل إلى الكلمة السحرية التي تجعله يكشف كل أسراره .. إنني موقنة بأنني على صواب .. فقل لمرة واحدة إنك مسرور لوجودي معك . لو لم تقل « الكلمة السرية » لبريجز لمكث النبيذ والفضيات في مخبئهما . وكان من الممكن أن يموت دون أن تعرف بوجودهما » .

قال : « لقد قلت إنني شاكر لك » .. ولمحت عيناه تومضان ، فقالت : « لكم أكره أحياناً شفتيك المنطبقتين بالتحفظ الإنجليزي . إن قلبي يتسارع في الوجيب إذا تكلمت بالتحرر الفرنسي » .

– لم لا يكون سير نيفيل بلاكلي كذلك ؟

– إنني أمقته حقاً . إنك أخفتني ، حتى لأتوقع أن يقفز بارزاً عبر السياج أو يخطو نحوي من بين الأشجار .

ومست فيتوريا بسوطها ، فانطلق يعدو بها ، وتبعها تايسون وهو يخال أن من العسير أن يجد امرأة تفوقها براعة في الركوب ، أو في الجمال .

ولقد أدرك أنه لو كان أميناً لاعترف بأنه أحبها ، وأنه سيشعر بالوحدة بدونها . فلقد نشأ على تعود صحبة الرجال ، وعلى مناقشة ومعالجة عشرات المشكلات يومياً ، بيده وحده أن يحلها . وتأكد من أن إقامته وحده في بيت متداعي السقوف ، متهالك الجدران ، يشيع فيه الغبار والخراب « كفيل بأن يسوقه إلى ما يشبه القنوط . أما مع فانيا ، بتحمسها ، وانفعالاتها الشبيهة بانفعالات الطفل ، وإيماءاتها المثيرة ، فقد بدا له ذلك مبعثاً للتسرية ، وأصبحت متاعبه جزءاً من قصة المغامرة التي كانت تعتقد أنها موجودة .

وتلفتت نحوه فلمح عينيها الواسعتين ، وأنفها الصغير ، المستقيم وشفتيها المبتسمتين . وقال لنفسه : « إنها جميلة .. أجمل بكثير

مما يرتاح إليه عقل أى رجل .. وكلما أسرعت فى التدبير لمستقبلها كان هذا أفضل » .

ولم يعودا للبيت إلا قرابة الظهر . وكان هوكينز فى انتظارهما ليقود الجوادين إلى حظيرتهما . وسارت فانيا إلى قاعة الجلوس وتايسون يتبعها . وقالت : « كنت أفكر فى رى الزهور قبل أن نشرع فى أى عمل » . فقال : « أعتقد أنك تعنين لحظة عودتنا لحجرة المكتب . وأعترف أن هذا ليس بالعمل الذى يشوقنى » .

قالت : « بوسعنا التحول إلى الحجرات الأخرى » . فأجاب : « سيكون هذا عملا غير منسق » .

— ها قد عدت إلى دور القائد .. فعلى الجيش أن يتقدم وفقاً للخطة المرسومة له .

— إنك تتعمدين إغاظتى وقد أنذرتك بأنك ستتجاوزين حدودك يوماً .

فالت برأسها بطريقة رآها — فى نفسه — أنها فاتنة ، ثم أجابت : « ها قد أصبحت مدنياً ، وإنى لأبذل جهدى لأجعلك بنسى الدقة الخشنة التى لم تعد ضرورية فى وقت السلم » .

وكاد « تايسون » أن يقول : إن الجيش الذى اجتاز جبال « البيرنيس » لم يكن يعانى دقة خشنة تقريباً ، برغم أن الذين كانوا فى رفاهية فى إنجلترا كانوا ينسونه تقريباً . ولكنه رأى أن قوله هذا

خليق بأن يبديه مغروراً كما كانت فانيا تتهمه . وقال بدلا من ذلك : « اختارى أنت أين نبدأ بحثنا ثانية » .

وللدهشته سمع فجأة أصواتاً فى البهو .. وسمعتها فانيا كذلك ، فرمق كل منهما الآخر وكأنما تولتهما فكرة واحدة . وقال بسرعة : « يجب ألا تكونى هنا .. اخرجى خلال النافذة بسرعة » . فهمست : « قد أشاهد .. هناك فكرة أفضل » .

وهرعت إلى المدفأة ، وفتحت باب الصوان المجاور ، حيث وجدت الأوعية الخزفية ، ومرقت خلاله . ولاحظ « تايسون » أنها نسيت قبعة الركوب فالتقطها ودسها خلف الأريكة . بينما فتح بريجز باب القاعة وقال بصوت مرتجف : « الأونرابل مانفريد ديل يا سيد تايسون » .

وشد تايسون قامته ، بينما دخل الحجرة شاب بالغ الأناقة فى ملبسه حتى كاد لا يعرفه ، فلقد انقضى أكثر من أربع عشرة سنة لم ير فيها ابن عمه الذى كان إذ ذاك قد تجاوز مرحلة الصغر بقليل ، وكان إذ ذاك بغيضاً .ووقف الشاب يحملق فيه ، ثم قال فى صوت أجش : « أحسبك تاوسون . وإن اعترفت أنه كان من العسير أن أعرفك لو قابلتك فى مكان آخر » .

ورد تايسون : « الأمر كذلك بالنسبة لى .. ماذا تريد ؟ » .. وكان حاد اللهجة ، فضحك مانفريد بشكل يغيظ . وقال : « هكذا

أنت يا ابن عمى العزيز .. كما ينبغى أن أدعوك وإن كنت مولوداً فى غير الناحية السليمة » . فقال تابسون : « إننى ما دعوتك للحضور . ولهذا فلست أميل إلى أن أسألك عن سبب مجيئك لزيارتى . فلا أعتقد أن هذا يهمنى » .

قال مانفريد هازئاً : « أترانى مدعواً إلى الجلوس ؟.. قد أتقبل شيئاً من المرطبات » .

— لست أعتزم تقديم أى شىء لك . تكرم بإبداء سبب حضورك . ثم انصرف بأسرع ما تستطيع .

— أهذا مسلكك ؟.. كنت أتصور أنك ستبدى شيئاً من التسامح .. فالفور للأفضل .

— إن تصرف والدك أمر لا أود مناقشته .

— هذا السلوك يا ابن العم العزيز . أمر متوقع . ولكن : لو قدم محاميكم أى دليل على أن أباك وأمك ارتبطا بزواج شرعى ، لما مضى أبى فى مطالبته باللقب .

وكان مانفريد ديل قد جلس مستريحاً فى مقعد مريح . ومضى يقول : « إنك سعيد الحظ إذ تركت لك أمك هذا البيت . ولكنه يحتاج إلى الكثير من المال » .

— أحسبك لست هنا للحديث عن بيتى . فلماذا جئت ؟

— ما أظننى كنت أتوقع أقل من هذه الخشونة .

ولم يرد « تابسون » ، بل اكتفى بالانتظار بوجه متجهم . كان قد تحرك وظهره للمدفأة الخالية . وبرغم الأناقة الباذخة فى ثياب ابن عمه ، فقد كان يبدو فى بزة أبيه قدر الرجل مرتين . وما كان الفارق بينهما يتجاوز عامين . ولكن سنوات الحرب والسلطة فى ميدان المعارك ، أكسبت « تابسون » نضجاً افتقده الشاب الذى كان يواجهه . فقال مانفريد :

— لقد جئت لأتبين هل فى وسعك مساعدتى .

فتساءل تابسون فى دهشة : « أساعدك ؟ » .

— أحسبك سمعت عن الجريمة التى وقعت فى القرية المجاورة لممتلكاتك .

— جريمة ؟.. أية جريمة ؟

— متى رجعت ؟.. لقد ظننت أن تكون هنا ، ولكن اللذين فى النزل قالوا : إنهم لم يروك .

— لقد وصلت من دوفر يوم الثلاثاء .. وإن كان هذا لايعنيك .

— يوم الثلاثاء ؟.. إذن ، فلا أحسبك تملك مساعدتى . ففى مساء الثلاثاء اضطر مستر ومسز تشارلوود للنزول فى الفندق لسوء حظهما .. وكانت ترافقهما ابنة أخيهما .. إيفا نجلين تشارلوود ، وكان المنتظر إعلان خطبتى لها عند وصولهم إلى لندن ...

— هل ستتزوج ؟.. إذن ، لا بد أن أهنئك .

— كنت أقدر تهنئتك لولا أن الفتاة اختفت أثناء وجودها فيما تظن أنها « قريتك » .

— اختفت ؟.. كيف كان يتسنى لها ذلك ؟

— هذا ما أود معرفته — وعندما علمت بما حدث ، أتيت من لندن مباشرة ، فإذا بها اختفت دون أن تترك ما يرشد إليها .

— لا بد أن هناك من لديه فكرة عما حدث .. لعلها هربت مع شخص آخر ؟

— هذا ما حاول الذين فى المنزل أن يخبرونى . ولكن عمها — وهو أهل للثقة — يؤكد أنها لم تكن تعرف من الرجال إلا القليلين « فيما عدا طالب الثروة المدعو سير نيفيل بلاكلى الذى وجد مسجى على أرض مخدعها بفعل معتد لم ير وجهه .

تنهد تابسون وقال : « قصة تبدو معقدة جداً . ألديك ما يدعو للظن بأن الفتاة لم تكن راغبة فى الزواج منك ؟ » . فقال بحدة : « بل راغبة ، فأنا وسيلتها لدخول المجتمع ولا تلبث ... » وأمسك فأكمل تابسون : « لا تلبث أن تغدو ليدى ويلينجديل إذا ما مات أبوك » .

— أجل ، إذا شئت التعبير بهذه الفظاظة .

— وهل ترغب حقاً فى الزواج منها ؟

— طبعاً .. إنها وريثة ثروة طائلة .. وقد دبر الزواج أبى وعمها بما أرضى الفريقين .

— ولماذا تحتاج إلى وريثة ، وقد كان جدى واسع الثراء ؟

— أهناك من يقنع بالمال ؟.. إن تحت رعايتى « عصفورة » جميلة مولعة بالماس بجشع .

— إذن ، يجب العثور على تلك الوريثة بسرعة .

— هذا ما أعتزم .. وقد ظننت أنك ربما سمعت شيئاً يهدينى إليها .. ولكنى كنت مخطئاً . ونهض متباطئاً ، فقال تابسون : « لو كان بوسعى مساعدتك » فثق أننى لن أفعل » .

— ما هذا بالغريب على الابن غير الشرعى . حسناً ، من المحتمل ألا نلتقى ثانية .

— لا تتأكد من هذا .. وقل لأبيك إننى شديد العزم على منازعة اللقب والضياع .

فضحك مانفريد بوقاحة وقال : « يقولون إن الجندى البريطانى يعرف الحقيقة عندما يهزم . ولكن احتفظ بتفاؤلك ، فلست تملك سواه » . وسار إلى الباب قائلا : « وداعاً يا ابن العم غير الكريم .. ولن أدعوك إلى زفافى » .

* * *

تغلب تابسون على تقلص أصابعه لضربه ، وما منعه عن ذلك إلا سنوات من التدرب على التحكم فى مشاعره . ومع أن لكمه كان سيريح نفسه إلا أنه رأى أن هذا لا يليق به « وكان كفيلا بأن يطيل

فتح باب الصوان الذى كان خلفه . ورأى فانيا تحملق بعينين جاحظتين ، ووجه شديد الشحوب ..

بقاء الزائر غير المرغوب . ووقف حتى سمع عجلات المركبة تبتعد . وفى تلك اللحظة فتح باب الصوان الذى كان خلفه ، ورأى فانيا تحملق بعينين جاحظتين ، ووجه شديد الشحوب . ومع أن شفتيها كانتا تتحركان فلم يصدر عنهما صوت ما .

وقال : « إذن ، فاسمك إيفا نجلينا تشارلوود ؟ » ..

قالت : « واسمك تايسون .. ديل . إن الصور المعلقة تحمل اسم أوسبورن » . فقال : « كان بوسعى أن أفسر ذلك ، لو خطر لى أن ثمة علاقة لك بابن عمى » .. فقال وكأنها تهمس : « ها قد رأيت .. لماذا لا يمكن أن أتزوج منه » .

والتقت أعينهما وكأنهما يتخاطبان دون كلام ، ثم التفت تايسون وابتعد عنها إلى النافذة ، فراح يطل منها دون أن يرى شيئاً ، وبعد فترة طويلة ، تكلمت فانيا وفى صوتها رنة خوف : « ما أحسبك .. تريد .. إبعادى » .. فأجاب : « إنك لتعلمين ألا سبيل إلى بقائك هنا . لا سيما وقد من تكونين ؛ فأنا مضطر لإخبار عمك عن مكانك » .

-- لماذا ؟.. إنك لتعلم أنه سيضطرنى للزواج من ابن عمك .. ذلك البهيم الطباع .

وكانت تتكلم بعنف . ثم تحركت لتقف بجواره عند النافذة . وقالت : « لماذا تكلم إليك هكذا ؟ لماذا ناداك بكلمات بغيضة ؟ » .. فرد تايسون : « إن أبى هرب مع أمى لأنه أحبها . وكانت قاصراً

ولا أحد يدرى أين عقد قرانهما . ولكنه عقد، وأنا موقن من هذا » .

— ولكن عمك يقول : إنهما لم يتزوجا ؟

— عندما مات أبى ، طالب عمى بدليل على القران .. وكنت فى الخارج أحارب ، ولم يستطع المحامى الاهتداء إلى الوثائق ، ولا إلى معلومات تدل على مكان عقد مراسم القران .

— فأصبح عمك لورد ويلينجديل .

— إنى أفهم .. مدى ألمك لهذا ؟

— لست آبه لكلمات مانفريد ، ولكنى سأجلو اسم أبى ، ولو قضيت كل عمرى فى ذلك .

وشعر بيد صغيرة على ذراعه ، وسمعها تقول بلهفة : « سنفعل هذا معاً .. سنعثر على الدليل .. هنا فى هذا البيت .. إننى واثقة من ذلك » . فقال : « شكراً لك يا فانيا ، ولكن هذا قد يستغرق وقتاً طويلا ، وهو ما يتبقى لك » . فصاحت : « هذا بوسعى ، وسأفعله .. أتراك مستعداً حقاً لأن تضطرنى للزواج من هذا الوحش .. الذى لا يريد سوى أموالى .. لينفقها على المرأة الأخرى » .

— أأنت واسعة الثراء حقاً ؟.. فكيف أستبقيك هنا .. تصورى ما سيقوله كل امرئ .

ولم تنبس ببنت شفة ، بينما استطرد فى حديثه : « لن تلطخ

سمعتك أنت فحسب . بل إننى قد أرسل مكبلا بالأغلال إلى أستراليا جزاء اختطاف امرأة . إننى سأفسد كل شىء جميل وشاب بالنسبة لك . وهذا ما لا أطيقه » .

كان فى صوته رنة جعلت فانيا تحملق فيه متسائلة .. وقال بلهجة حازمة : « علينا أن نبحث هذا بمنطق متعقل .. إننى أحاول الوصول إلى خطة مناسبة .. إننى سأصطحبك فى مركبة أستئجرها فى القرية ، وأنزلك بقرب منزل عمك . وبوسعك أن تعودى إليه ، وتقولى : إنك كنت متنقلة بين عدة فنادق . محاولة تفادى سير نيفيل .. ولهذا السبب تركت فندق هذه القرية » .

كان يتحدث بلهجة حادة . كأنما يشرح لجنوده مهمة عسكرية ، بينما استطرد : « هذا تبرير هش . ولكنى أحسب أن عمك سيسر بوجودك فى بيته ولن يسألك كثيراً » .

تنهدت فانيا : « إنك نسيت أمراً .. هو أننى لا أعتزم العودة إلى عمى .. أأعود لأقسر على الزواج من ابن عمك ؟ » .

وواجهته فى تحد ، فأشاح بوجهه عنها .. وأدركت أنها أصابت نقطة مفحمة .. وما لبث أن قال : « لابد أن لك أقارب » .. فقالت : « عمات مسنات سيفعلن ما يبديه عمى ، وسيرين أن زواجى من لورد ويلينجديل المقبل أمراً رائعاً .. ولى أبناء عمومة لا أعرفهم ، ولم يدع عمى أحداً منهم » .

فتململ تابسون فى وقفته : « لا يمكن أن تكونى الشخص الوحيد فى العالم الذى لم يؤت أقارب أو أصدقاء يلجأ إليهم فى موقف كهذا » . فقالت : « لعلى الوحيدة .. ولكن هذه هى الحقيقة » .

قال والغضب يتولاه : « إذن ، فماذا نفعل ؟ » .. وجمد كل منهما فى مكانه .. ثم قالت فانيا فى ضراعة : « دعنى .. أمكث هنا » .

— لقد أخبرتك أن هذا مستحيل .

— بوسعى اقتراح طريقة تجعله ممكناً .

فتساءل : « كيف ؟ » .. وكان جوابها : « بوسعك أن تتزوجنى ! » .

* * *

الفصل الخامس

ظل تابسون يحملق فيها لحظة . كأنه لم يسمعها سمعاً جيداً ، ثم قال بصوت بدا خشناً على غير توقع : « هل تدركين ما تقولين ؟ » .

— إنك بذلك تحميننى .. سأكون معك بمأمن .

وقف يحملق فيها وهو لا يزال مرتاباً فى سمعه ، ثم ابتعد عنها وولاها ظهره وقال : « هذا مستحيل » .. فتساءلت : « لماذا ؟ » .. قال : « إنك تعرفين الإجابة » .

ولم يجبها ، فما لبثت أن قالت بلهجة مضطربة : « لعله بدا لك .. أن من الخطأ .. أن أسألك أمراً كهذا .. ولكنى أدركت — وأنا مختبئة فى الصوان — أننى ما كنت مبالغة حين قلت لك إننى .. أوثر الموت على أن أتزوج ابن عمك » .

قال أخيراً : « سأصطحبك إلى عمك وأشرح له الظروف غير العادية التى وجدتك فيها ، وسأقنعه بأن يفهم منطق العقل » .

كان يتكلم بقوة وكأنما لا يداخله شك فى أن بوسعه إقناع عمها بأنه من المستحيل أن تتزوج برجل لا تحبه ويغايرها فى كل شىء مثل « مانفريد ديل » . فقالت : « إنه لن يصغى إليك .. إننى أعرف ذلك .. فإذا أعدتنى إليه .. فإنه سيستطيع وزوجته أن يحطا تدريجياً .. أية مقاومة عندى .. وقد يتظاهر بالاقتناع وأنت عنده ولكن .. بمجرد أن تنصرف فإنه .. سيتصل بلورد ويلينجديل ، وسأضطر

مهما كافحتم إلى .. زواج سيكون .. أشبه بالهبوط إلى الجحيم » .

كانت تتحدث بقنوط ، وكأنها موقنة من أن تابسون عازم على تنفيذ ما قال .. ولم يلتفت إليها ، فسادهما صمت طويل .. ثم سمعها تقول بلهجة مفعمة بالأسى : « لعل .. السبب الحقيقى فى أنك تقول ما تقول .. هو أنك .. لا تريدنى » .

وتحول إليها فرأى فى عينيها نظرة جزع ما أبصر مثلها من قبل .. وظل كل منهما يرمق الآخر لبرهة ، ثم قال : « لست أملك ما أقدمه لك » — فقالت : « وهل لو كان لديك .. أكنت تتزوج منى ؟ » .

والتقت نظراتهما .. وكأنما مات الرد على شفتيه .. ثم قال : « هذا سؤال مبنى على افتراض ، فلا جواب له عندى » .. فقالت : « إننى أريد .. أن أعرف » .. فأجاب : « قلت : لا مجال لهذا السؤال ، فأنا كما تدرين لا أملك الزواج من أحد .. فليس لى .. حتى مجرد اسم يحق لى حمله » .

— إنك لتدرك .. أنك ستجد الدليل هنا .. فى هذا البيت .. ولكن .. قد يأتى هذا متأخراً .

فأشاح بوجهه وقال : « إننى أعتزم .. استئجار مركبة تقلنا لبيت عمك » .

— إنك لا تعرف أين يقيم .

— سأهتدى إليه .. أو لعلك ستخبريننى لأن هذا كل ما تستطيع عمله .

— هل تفكر فىّ .. أو فى نفسك ؟

— أتقول : إن هذا هو ما فيه الخير لكلينا ؟

— أرجوك .. تزوجنى .

والتقت أعينهما ثانية ، فشعرت بأن ما كان فى سريرته يخالف ما كانت تقوله شفتاه .

وما لبث أن قال : « إننى سأنصرف الآن .. فإذا تأخرت فلا تنتظرينى للغداء » .

وغادر الحجرة ، فأطلقت صرخة يأس إذ أغلق الباب خلفه بعنف . فغطت وجهها براحتيها . ولم تبك ، فقد أحست بأن يأسها تجاوز الدموع . كيف يقسو « تابسون » بحيث يردها إلى عمها وهو يوقن بأنها إذا ذهبت إليه ستكون تحت سلطانه القانونى ، فيضطرها للزواج مهما تقاوم . فلقد كانت تعاستها لدى عمها تجعلها أحياناً تفكر فى أن الزواج من أى أحد سيكون أفضل من معاشرة قوم لا يريدونها وهم لا يحبونها ، لأنها كانت ذات جاذبية وثراء طائل . وما كانت مبالغة حين قالت لتابسون إنها لم تكن تخاف « مانفريد ديل » فحسب بل ويقشعر جسمها لو زحف نحوها . فكانت تدرك بشعور خفى أنه شرير ، خبيث ، من المستحيل أن تحتمل أن يلمسها ، فما بالك بأن يقبلها .

لقد صاحت عندما رأته أول مرة : « إننى أكرهه » ، ولكن عمها قال : « كل النساء يكن خائفات عند الزواج ، ولكنهن لا يلبثن أن يحببن أزواجهن » .. جدير بك أن تركعى وتشكرى الله لأن رجلا

في مثل قيمته ، يتردد على أعلى الأوساط الاجتماعية يود الزواج منك » . وكانت فانيا تعرف أن لزوجة عمها طموحاً اجتماعياً ، وأنها تظن أنها تستطيع بفضل زوجها أن تدخل المجتمع الراقي مما يجعلها تضحي بأي شيء — حتى بنفسها — لتحقق ذلك . ولقد أدركت وهي تنصت في الصوان لصوت « مانفريد » المتكلف أن الفارق بين مانفريد وتايسون يبدو لذهنها كالفرق بين الشيطان والملاك . وأدركت أو ذاك أنها قد أحبت تايسون ، بل إنها في الواقع أحبته منذ لحظة إنقاذه إياها من سير نيفيل وإحضاره إياها إلى هذا البيت الساحر ، فقالت لنفسها : « إنني أحبه .. بل أحببته دائماً لأنه كان في قلبي حتى قبل أن أراه .. إنه الرجل .. الذي حلمت بأن أراه يوماً » .

ولقد عمقت كل لحظة قضتها في هذا البيت من شعورها .. فإن ركوب الخيل معه ، والبحث عن الكنز ، والاستماع لصوته العميق وهو ينطق باسمها سحر كانت توقن بوجوده في العالم ولكنها لم تعثر عليه .. فلما توصلت إليه أخيراً ، إذا به ينتزع منها . وقالت لنفسها : « كيف يكون بهذه القسوة ؟.. وكيف يجعلها تتألم بهذا الشكل ؟ » .

وفكرت في الهرب ثانية .. ولكن ، أين تذهب ؟.. وكيف ، ما لم تستعر « فيتوريا » تنتقل لأي مكان ؟

وشعرت كأنها تنطح جداراً لا يلين ، فارتمت على الأريكة ، ودفنت وجهها في وسادة .

* * *

لم يكن « تايسون » وهو في طريقه إلى القرية يسمع سوى الصوت المتخوف : « بوسعك .. أن تتزوجني » .

كانت الفكرة قد خطرت له ولكنه نحاها عنه ، فقد رأى من الجنون أن يفكر في الزواج من امرأة ما لم يثبت أحقيته باسم أسرته ، وما لم يعثر بمعجزة ما على ثروة أبيه .

ومع أن فانيا أثارت التفاؤل في نفسه بتحويلها « البحث عن الكنز » إلى لعبة يمارسانها ، فقد كان يشعر بأنه تفاؤل ليس له ما يبرره ، ومع ذلك فقد كان مقتنعاً في دخيلة نفسه بأنه لن يلبث أن ينتصر ، وأن خسة عمه لن تدوم إلى ما لا نهاية ، ولابد أن يواجه بأن ما كان يعرفه « تايسون » هو الحقيقة ، وإذ ذاك سيعود لأبيه وأمه الاحترام الذي كان من حقهما دائماً .

ولقد كان لتايسون عدد من الأقارب لم يرهم منذ سنوات لتغربه في الحرب ، ولكنه ما كان يعتزم أن يتصل بأحد منهم ، يقيناً منه بأن تقبلهم استئثاره بلقب جده سيقعد بهم عن العراك معه ، لا سيما وأن أباه كان قد مات ، بينما عمه لا يزال حياً موفور القوة . وكان يقول لنفسه : « إنني وحيد في هذا ، ولابد أن أفوز وحيداً . ولكن هناك .. فانيا » . وكان وجودها يغريه بدرجة لا سبيل لمقاومتها . وحدث نفسه — وهو يمضي على جواده — بأنه لا سبيل لأحد أن يقاوم عينيها الواسعتين الضارعتين ، ولا وجهها الشبيه بالزهرة ، ولا قوامها الرخص الصغير .. ليس هذا فحسب ، بل إنها كانت

تكافح بشجاعة ضد الزواج من رجل تكرهه .. وكانت جريئة ، إذ غادرت الفندق مع رجل غريب عنها تماماً . ولكنها بوحي الغريزة اطمأنت إليه .

وقال لنفسه فى اكتئاب : « ولكنى لا أمتلك شيئاً أقدمه إليها » .

واقترب من النزل فى حذر من أن يكون ابن عمه « مانفريد » يبرح القرية بعد .

وعند حافة الساحة الخضراء . أطل إلى الداخل ليتبين أهناك أثر لمركبة مانفريد الأنيقة . ولكنه لم ير سوى بعض المزارعين الذين وفدوا على الحانة ، ومركبة مقفلة الجوانب ، قديمة الطراز . جال بخاطره أنها الوحيدة التى يمكن استئجارها فى القرية ، فهبط عن « سالامانكا » . وتقدم منه خادم المكان ليأخذ الجواد إلى حظيرة . فقال له : « أود رؤية صاحب المكان » . فأجابه الخادم : « إنه مشغول فى هذه اللحظة بالذات » .

– لعل بوسعك أن تساعدنى .. فأنا أريد استئجار مركبة مغلقة ذات جوادين .

ونظر الخادم إلى المركبة الموجودة بالساحة وقال : « هذه هى الوحيدة التى لدينا يا سيدى » .

– إذن سأقنع بها . هلا أحضرتها إلى « ريفيل رويال » بعد ظهر اليوم ؟

– الجوادان لن يتيسرا اليوم . فهناك سيد أبى البقاء وقادهما إلى « دوفر » .

– فمتى يتسنى لى الحصول عليهما إذن ؟

– غداً يا سيدى .. أتقول إنك تريدهما عند « ريفيل رويال » ؟ ما كنت أعرف أن أحداً يقيم هناك .

– إننى عدت من الحرب كما ترى .

– إذن فلا بد أن تكون مستر دبل يا سيدى . إننى ما سمعت عنك .. ولكنى كنت بعيداً ، أعمل فى الأسطول لخمس سنوات .. ثم قالوا : إننى تقدمت فى السن » وبعد أن جرحت ، حدث حظى أن عدت إلى الوطن ، على قيد الحياة .

ونظر « تايسون » مرة أخرى إلى المركبة المغلقة الجوانب ثم قال : « أحضر المركبة مع الجوادين غداً » .

وامتطى سالامانكا ثانية ، وانصرف دون أن يفطن إلى أن أحداً كان يرقبهما خلال إحدى النوافذ .

* * *

كان النبيل مانفريد دبل يتكئ على مائدة الحانة : وقال لصاحب النزل : « ارجع بذهنك ، وحاول أن تتذكر من كان هنا مساء الثلاثاء الماضى » .. فحك الرجل رأسه وقال : « كانت هنا سيدة وسيد فقد حصانه حدوة » .

– لقد تحدثنا عنهما .. من غيرهما ؟.. فكر فى الرجال الذين كانوا هنا .

– كان هناك رجلان عادا من سباق الخيل ، وقد أسرفا فى الشراب لأنهما ربحا . وكان هناك مزارع يقيم فى الجانب الآخر من القرية ..

– لست مهتماً به . من أيضاً ؟.. فكر يا رجل .. اكدح ذهنك !

ولاحت من الرجل نظرة خلال النافذة ، وصاح : « كان هناك هـذا الرجل .. شرب زجـاجة من أفضل نبيذ عنـدنا ، ثم هنأنى على جودته » . والتفت مانفريد ببطء ، حتى إذا لمح الرجل الذى كان صاحب النزل يتكلم عنه ، وتصلب فى وقفته ، وتغيرت ملامح وجهه وهو يقول : « أواثق من أن هذا الرجل كان هناك » .

– أجل ، أتذكره جيداً : والحق أنه بدا أرقى مستوى من أن يتحدث للموجودين بالحانة .

ولم يجب مانفريد ، ولكنه وقف على مسافة من النافذة يراقب تايسون حتى انصرف . ثم قال بحدة :

– اذهب فتبين ماذا كان يقول لخادم الحظائر ، وأسرع .

ومال على النافذة ليتأكد من أن مركبته كانت بمنأى عن أن يراها « تايسون » وهى عائدة ، إذ كان قد أرسل خادمه للقرية المجـاورة

ليتبين هل من أحد رأى مساء الثلاثاء سيدة شابة ، مسافرة مصطحبة قدراً كبيراً من الأمتعة .

* * *

عاد « تايسون » إلى البيت متمهلا ، وفيه شعور بالرغبة فى رؤية فانيا ثانية ، وهو يدرك أن لم يبق لهما معاً سوى أربع وعشرين ساعة ، وقد يحتاج لهذه الرؤية بقية عمره . ومع ذلك كانت كل جارحة منه تخشى أن يتعرض لعينيها الضارعتين ، وتجعل من سماع أسئلتهـا التى لا جواب لها عنده .

كان هوكينز فى ارتقـابه ليأخـذ سالامانكا ، وقد أدرك من اكفهرار ملامح مخدومه أن شيئاً قد حدث فـساءه . ولقد رآه هكذا عندما كان سير المعركة يسوء ، أو حين كان يعثر على جثث زملاء لهما قتلى . على أن الحكمة أملت على هوكينز ألا يسأله ، فقاد الجـواد لحظيرته ، بينما دخل « تايسون » البيت . فإذا فانيا تنتظره فى قاعـة الجلوس ، فحاول أن يتكلم بلهجة عادية : « هل أعد الغـداء ؟.. أرجو ألا أكون تأخرت » .. فسألته بصوت مثقل بالتوجس : « ما الذى .. دبرته ؟ » .

– استأجرت مركبة ذات جوادين .. ستأتى غداً .

كانت أمامها أربع وعشرون ساعة على الأكثر « فكان هنـاك أمل – على الأقل – فى أن تقنعـه بألا يرسلها بعيداً عنه . واستطرد يقول : « كل ما عليك الآن ، هو أن تخبرينى إلى أين أذهب بك .

ولكن .. من الحكمة أن نأكل أولا » ... فقالت : « كيف تسوغ لنفسك بأن تفكر .. فى الأكل ، وأنت تعاملنى هكذا ... بقسوة .. وجحود ؟ » .

كانت تحدثه الآن بغضب ، وهذا ما بدا له أفضل من حديثها الضارع إليه .. وتساءل :

— أنقضى الأربع والعشرين ساعة فى شجار ؟.. لقد خطر لى أن نمضى فى البحث عن كنزنا .

— أتعنى .. أننا لو عثرنا على .. نقود أبيك » فإنك .. تتزوج منى ؟

— كلا .. لا أعنى هذا . هناك شىء آخر يجب أن أعثر عليه .

— الدليل على زواج أمك من أبيك ؟.. وإذا عثرنا على الشيئين. أتفكر فى الزواج منى ؟

والتقت نظراتهما، فهتفت فانيا وإن لم يتكلم تايسون: « أجل .. أوقن من أنك ستفعل !... إن كبرياءك تحول دون أن تخبرنى .. ولكن تواضعى يكفى لأن أقول ما فى قلبى .. إننى .. أحبك » .

وتحركت نحوه ، فابتعد عنها قائلا : « بالله عليك يا فانيا .. لا تقولى مثل هذا .. ولا تنظرى لى هكذا .. إننى بشر وإن كنت لا ترين هذا ! » .

وغادر قاعة الجلوس ، فتبعته إلى الردهة .. وصاح وهو يتقدم إلى حجرة المائدة : « إننا مستعدان للغداء يا بريجز » .

وقضيا ما بعد الظهر يجوسان فى البيت ، يبحثان فى حجرة بعد أخرى .. وقال تايسون : « إننى بحثت فى حجرة نومى » . فقالت : « وأنا بحثت فى كل ركن من مخدع أمك .. أتظن أباك قد لجأ إلى العلية التى تحت سطح البيت ؟ » . فقال : « كلا . لا أعتقد . فإن الخدم كانوا ينامون هناك فى الأيام الخالية .. ولكنى أرجح غرفة السلاح » .

وفتشا فى حجرة السلاح .. فعثر « تايسون » على الكثير مما أعاد لذهنه ذكريات صباه ، مما خفف من تجهمه فأخذ يحدث فانيا عن سعادته وهو صغير .. « كنت أبكى إذا حانت أيام المدرسة » وأحصى الأيام حتى تحين العطلة الدراسية لأعود للبيت ، بعض الفتيان كانوا يفضلون المدرسة على البيت ، ولكنى لم أكن منهم » .

— ولكنك ولابد استمرأت الدراسة فى « أكسفورد » .. كثيراً ما أخبرنى أبى أنها كانت أسعد أيامه .

— لقد اكتسبت صداقة الكثيرين هناك ، ولكن صلتى بهم انقطعت حين انضممت إلى الجيش ، فيما عدا اثنين انضما لفرقتى فى نفس وقت انضمامى . وقد قتل الاثنان .

كان فى صوته حزن وأسى .. واستطرد : « لهذا أحسبنى أشعر بأننى وحيد الآن .. ففى هذا الجزء من العالم ليس لى سوى أصدقاء قليلين .

فأسرعت فانيا تقول دون تفكير : « لك .. أنا » .

وأدركت وهى تتكلم أنها أعادت التوتر بينهما بعد الساعات القلائل من التوتر . ووضع « تايسون » الأشياء على أرفف حجرة السلاح وقال : « ما من شىء هنا ـ فلنجرب مكاناً آخر » .

وغادر الحجرة فتبعته ، وكأنه قد اعتاد التقدم فليس بوسعها اللحاق به . وقالت لنفسها : « إننى لن أراه مرة أخرى بعد الغد » . فشعرت بألم وكأنما أصاب قلبها خنجر . وعادت تقول لنفسها : « كيف أتركه ؟.. كيف أحتمل محاولة نسيان أننا التقينا ؟ » .

وتناولا الشاى ، ثم خرجا إلى الحديقة إذ كانت الشمس لا تزال مشرقة .

وقال تايسون وهما يسيران على الدروب التى غطتها الأعشاب : « كان هنا عشرة من البستانيين عندما كان أبى على قيد الحياة » . فقالت بصوت خافت : « إنها لا تزال جميلة برغم الحشائش » .

واجتازا جداراً قديماً من الطوب الأحمر ، فشاهدا ما كان يوماً أحواضاً منسقة للأزهار . وقال : « كان الناس يجيئون من أميال ليسألوا أمى عن علاج لبعض النباتات » . فقالت : « ترى ـ هل هناك .. علاج .. للقلوب الكسيرة ؟ » .. فأجاب : « ألا بد من أن تعذبينى ؟ » .

— ترى .. ماذا تظن أنك .. تفعل بى ؟

فأجاب بصوت خافت : « إننى لا أكف عن سؤال نفسى ـ

فشاهدا ما كان يوماً أحواضاً منسقة للأزهار . وقال : « كان الناس يجيئون من أميال ليسألوا أمى عن علاج لبعض النباتات » ..

عما حملنى على الذهاب للحانة ليلة وصولى أول مرة ؟.. لو بقيت فى البيت ما حدث شىء من هذا » .

— هل أنت .. نادم على .. أنك التقيت بى ؟

— إنك لتعلمين أن هذا ليس ما يجول بخاطرى.. إننى أتعذب مثلك ... ولكنى لا أملك شيئاً أفعله .

— أليس هناك شىء تستطيع أن تفعله ؟

وجمد فى مكانه برهة ، ثم جلس على مقعد حجرى بجوار أحد الجدران ، فجلست فانيا إلى جواره .

وقال تايسون : « تأملى هذه الحديقة .. إنها مثل حياتى ، فوضى مهملة ميئوس منها ، لو بدأ المرء فى إصلاحها ، فإنه لا يدرى من أين يبدأ . أتظنين أن بوسعى أن أهبك حياة كهذه ؟ » .

— سيجعلنى هذا سعيدة جداً ... لو أنك فعلت .

— قد يكون هذا لفترة ، ولكنى سأرى خيالك يتبدد ، وستضجرين تدريجياً وتضيقين بالفقر وشظف العيش والتفكير فى متى تتاح لك الوجبة التالية .

والتفتت لتتأمله ، فأدرك ما يجول بخاطرها ، وقال : قبل أن تنطق بما يساورك ، أتعتقدين حقاً إننى أمس درهماً من نقودك ، ما لم أكن أملك ما يعادله من مالى الخاص ؟

ولم تجب فانيا ، فقد أدركت بما يشعر به وما يجول بخاطره ،

فكيف لا يكون إلا النقيض الكامل لابن عمه البغيض الذى ما كان يريد الزواج منها إلا لثروتها .

وقالت فى صوت خافت : « إننى لا أعبأ .. بأن أكون فقيرة معك » . فقال : « هذا ما يخيل إليك الآن . ألا تتأملين نفسك فى المرآة ؟.. ماذا ترين ؟.. لابد أنك تتحققين من أنك جد جميلة ، ولكنك كذلك نشأت فى رفاهية مترفة » .

والتفت ليتأملها ، ثم قال بصوت لم تسمعه من قبل : « يا أغلى الناس ، إنك درة منتقاة بعناية ، تختلفين فى كل شىء عن أية امرأة عرفتها ، فلا أملك أن أتلفك ، ولا أستطيع أن أراك تفقدين الصورة التى فى خيالك ، أو تفقدين جمالك لأننى لا أملك نقوداً كافية .. ولو لتغذيتك كما ينبغى » .

— إننى أحبك يا تايسون .. أحبك بكل قلبى .

— إنك لا تزالين صغيرة ، وستتغلبين على ذلك .

— أتغلب .. كما ستتغلب أنت ؟

— ما عرفت الحب حتى الآن .. وأوقن أننى لن أحب أحداً ثانية كما أحبك .

— أرجوك يا تايسون .. دعنا نجازف .. ليكن كل منا للآخر.. ولا شىء يهم غير ذلك .

— هذا ما أود أن أعتقد .. وما أود أن أقوله لك .. ولكن من

المستحيل أن أتصرف كفتى يافع ، لأنه ما زالت لدى بقية من الشرف ، ولأننى نشأت على أن واجب الرجل أن يوقر المرأة التى يحبها وأن يحميها .

– إنك تضحى بى .. من أجل مبادئك .

– لأنك أنت .. أنت ، ولأننى أنا أنا .. أتتوقعين منى أن أفعل أى شىء آخر ؟

– كلا .. إنك تتصرف كما أوقن فى قلبى أنك تفعل .. ولكن كيف أستطيع أن أعيش بدونك .. ولو كان بوسعك أن تعيش بدونى ؟

– لقد سألت نفسى هذا ، ولا أظن أننا ندرك الجواب معاً .. لن أفسد شيئاً أراه كاملا ، صحيحاً .. لا أنت ولا حبى لك .

ونهض وهو يتكلم ، فأدركت فانيا من أساريره أنه لا يحتمل مزيداً . وفى تلك اللحظة نضج حبها له فجأة واكتشفت أعماقاً جديدة لم تكن تدرى بوجودها ، ولتفهمها لمشاعره ، ولأنه كان يتألم أكثر مما تتألم ، أمسكت بيده وهى تسير بجواره . وقالت بصوت خفيض : « لقد فهمت .. وأنا لا أحبك فقط ، بل أعبدك .. لأنك رائع .. تعلو كل ما يعنيه أى سيد من هذه الكلمة » .

واشتد ضغط أصابعه على أصابعها .. وعاد إلى البيت فى صمت .

* * *

انتهى العشاء ، فصب تايسون لنفسه قدحاً آخر من النبيذ . وكان قد أصر .. فى هذا المساء – على أن تتناول معه الشراب ، فأدركت أنه أراد بهذا أن يرفع عنهما الاكتئاب والشعور بأنهما فى الساعات الأخيرة التى تنقضى ، وسيضطران بعد قليل إلى الفراق . ولم تكن قد أخبرته بعد بعنوان عمها ولكنها كانت تدرك أنها إذا حانت اللحظة ستخبره بها ، ومن المستحيل أن تمسكه عنه .

وكانت حين حان العشاء ، قد صعدت فارتدت أجمل أثوابها وأفخمها ، وكانت زوجة عمها قد أعدته لترتديه فانيا فى أهم حفلة ستدعى إليها إذا وصلوا إلى لندن ، وكان يتألق وهى تهبط السلم حتى لقد خيل لتايسون أنها كوكب يهبط من السماء إلى الأرض ، وكان هو الآخر قد بحث بين ثياب أبيه حتى وجد بزة للسهرة ، ونسق شعره على أحدث نمط ، وربط ربطة عنق من الحرير الأبيض ، حتى حسبته فانيا أكثر الرجال أناقة . فصاحت : « ما أفخم مظهرك » فرد عليها : « وأنت الأخرى تلوحين جميلة جداً » . وأحنت ركبتيها رداً على التحية ، وضحكا وكأنهما صغيران يلعبان .

دخلا قاعة المائدة ليجدا أن مسز بريجز قد أعدت لهما وجبة بسيطة ، وأحضر تايسون نبيذاً من القبو ، وسكب منه فى كوب فانيا وهو يقول : « ما أظن أحداً فى إنجلترا يستمتع بنبيذ أفضل من هذا » . وكأنما أدرك الزوجان بريجز أن الأمسية كانت مناسبة

خاصة ، فنظفا أحد الشمعدانات الكبيرة التي كانت فى القبو وأقاماه فى وسط المائدة بشموعه متقدة .

وإذ انتهى العشاء ، وأصبحا وحيدين ، نظرت فانيا إلى تايسون وقد جلس فى مقعد ذى ظهر مرتفع على رأس المائدة . وقالت : « أوقن أنك ستقيم مآدب كبيرة فى هذه القاعة فى يوم من الأيام ، وسيصغى إليك ضيوفك باحترام لأنك ستكون قائماً بدور كبير فى شئون المقاطعة » . فأجاب : « لا أظن هذا محتملا . أما أنت فستكونين متألقة كالنجم أينما تكونين ، وسيكون الرجال مشدودين إليك » .

— إذا حدث فسأجدهم جميعاً ذوى وجه واحد .. هو وجهك .. ولن أسمع سوى صوت واحد .. هو صوتك .. ولن أفكر فى غير شخص واحد .. هو أنت .

كانت تتحدث بحرارة عاطفية ، فقال تايسون : « إننى أحبك . وإنك لتعلمين أننى لن أستطيع الجلوس فى هذه الحجرة دون أن أراك فى المكان الذى تشغلينه الآن وأسمع صوتك .. سيطاردنى طيفك ولن تعود الحياة لما كانت عليه بدونك » .

ووضعت يدها فى يده التى كانت مبسوطة ، وهو يدرك الكلمات التى ارتجفت على شفتيها ولكنها لم تقلها لأنها .. كانت تحبه . وما لبثت أن قالت : « كان هذا حلماً .. ولكن لن أصحو منه إلى ما كنت من

قبل . إننى ولو أبيت أن تستحوذ علىّ ، ملك لك .. تماماً .. إلى الأبد » .

وأطبقت أصابعه برفق على أصابعها ، ورفع كأسه قائلا : « لن أكرر ما سبق أن قلت يا أحب الناس ، ولكننى حين أفارقك سأكون رجلا بدون قلب .. ولن أحظى بحب آخر » .

وجلسا برهة وأيديهما متعاقدة ، ثم فك تايسون يده وشرب كأسه ، ثم نهضا من قاعة المائدة واجتازا الردهة المظلمة التى تفضى إلى قاعة الجلوس . وتساءلت فانيا إذ بلغا البهو : « هل نلقى نظرة أخرى عسى أن نجد الكنز ؟ » .. فهز رأسه قائلا : « كلا ، فإنى أريد أن أتحدث إليك . أريد أن تخبرينى عن نفسك لأستطيع التذكر عندما أغدو وحيداً ، وأتمثل أنك لا تزالين معى » .

وجلسا جنباً إلى جنب فى قاعة الجلوس ، فحدثته فانيا عن أبيها ، وكيف كان جسوراً مغامراً ، وكيف جمع ثروة ضخمة بالاستجابة لإيعازاته النفسية .. تماماً كما فعل والده .

ومضت تقول : « كانت أمى قد ماتت وأنا جد صغيرة ، فكان أبى يصطحبنى لأنه كان يقول : إن وجودى يحول بينه وبين الوحدة ، فما كان يطيق الحياة وحيداً فى البيت الذى كان فيه سعيداً مع أمى .. فاستأجرنا المساكن فى كافة الأماكن الغريبة .. ولأنه كان قادراً على دفع أجور عالية ، فقد كان متأهباً لأن يستخدم خدم الغير ، وجيادهم ، وكل ما تدعو الضرورة إليه .. فكانت توضع تحت

إمرتنا أفخم البنايات والقصور .. واستأجرنا مرة قصراً لأحد أعضاء الأسرة المالكة لستة أشهر .. وما كان هذا يزيدنى إلا حنيناً إلى بيت بين الناس الذين أنتمى إليهم والأشياء التى كنت أمت إليها » .. لهذا أحببت « ريفيل رويال » فقد كان بيتاً ومقاماً .. وكان بوسعنا أن نجعله .. موطنا لحبنا . ومقراً لأطفالنا » .

ولم تكن تنطق بكلمة واحدة ، ولكن تايسون أدركها ، فهتف :
« فانيا ! » .

ونهض فسار إلى النافذة المفتوحة ، وتأمل السماء المليئة بالنجوم والحديقة والظلام .

قالت فانيا : « إننى .. آسفة يا تايسون » .. فقال : « تعالى ! »

وكانت دعوته أمراً ، وهرعت إليه فانيا ، فأحاط خصرها بذراعه ، وشدها خارجاً بها إلى الشرفة .. وكان السياج مكسواً بالأعشاب الفطرية ، والأرض تحت أقدامهما خشنة ، ولكن فانيا لم تع إلا أن تايسون يلمسها .. وتطلعت لوجهه تستبين أساريره على ضوء النجوم .

وقال تايسون : « علينا أن نفترق غداً دون جريرة منا .. ولكنه القدر مكتوب علينا ، ولأننى أدرك فى صميم قلبى أن كلا منا خلق للآخر ، ولأنه لن يقدر لسواك أن يحتل مكانتك لدى . فإننى سأودعك الآن » .. ولم ترد ، ولكنها أدركت ما كان يعنيه ، فرفعت

وجهها إليه فى بطء وهبطت شفتيه إلى شفتيها ، وكأنه يخشى أن يخيفها .. وشعرت بذراعيه تشدانها إلى قلبه ، وأيقنت بأن هذا ما كانت تنتظره ، وما كانت تريده منذ أن رأته .. كان على صواب فيما قاله ، وحاولت أن تزداد التصاقاً به ، حتى أوشكت أن تغدو جزءاً منه .

وما كان بوسعها أن تفسر شعورها ، ولكنها أحست بدفء رائع يسرى إلى صدرها ، وينساب إلى حلقها ، ثم إلى شفتيها . وكأنه كانت تسلمه نفسها ، وقد تقبلها واستحوذ عليها .

وأحس تايسون بها ترتجف فى أحضانه فأدرك أن قبلتهما كانت سحراً لا سبيل لتفسيره ، أثار نشوة فيه لم يعتدها من قبل ، ولكنها قطعة من الحياة نفسها .. وازدادت قبلته ضغطاً على شفتيها وإصراراً . وشعرا بالنشوة تزداد عمقاً ، وكأنها تشمل الدنيا بأسرها وتمس النجوم .

وقالت فانيا لنفسها : « هذا هو الحب .. الحب كما تمثلته دائماً وتمنيت أن أصل إليه » .. وأحست بأن قبساً من ضوء النجوم يسرى فى أعماقها .. وأن له أملا ، ولكنه أمل له غيبوبة روحية .

وهمست وكأنما ودت أن تصيح : « إننى أحبك ! » .

لقد أدركت أن تايسون يحبها ، وأنها تحبه ، وأنهما أصبحا واحداً وليس اثنين .. وظل يقبلها حتى شعرت بأنها لا تقف على الأرض ، وأنها تهيم معه نحو السماء .. وأخيراً رفع رأسه وقال :

– يا أحب الناس ويا أغلاهم !

كان صوته مضطرباً ، وظلت فانيا لحظة صامتة ، لا تملك سوى إخفاء وجهها فى صدره ، وهى تدرك أنه كان يرتجف مثلها . وعاد يقول : « إننى أحبك .. وإن الألم يمزقنى .. ولكن هذا اعتزاز يجعلنى أسعد رجال العالم حظاً » . وقالت فانيا : « أواه ، يا أحب الناس .. إننى أحبك .. أحبك .. فكيف أعيش بدونك ؟.. كيف سيتاح لى أن أعرف السعادة ثانية ؟ » .

وحاولت أن تواصل الكلام ، ولكن شفتيه أطبقتا على شفتيها، فلم تكن تملك سوى أن تشعر بغيبوبة روحية لا تفسرها كلمات .

* * *

عندما ألفت فانيا نفسها وحيدة فى مخدعها أخيراً ، شعرت كأنها لا تزال تطفو بين السحب ، وعز عليها أن تفكر . فبدأت تخلع ثيابها فى بطء ، وخيل إليها أن إشراقة المساء قد خبت . وودت لو ظلت تقبل تايسون وأن تظل بين ذراعيه ، وأن تدرك أنه قادر على إثارة معجزة رائعة فيها فوق كل ما كانت تحلم أو تتصور وجوده على الأرض . لقد أمدتها قبلاته بغيبوبة روحية لا يعرفها سوى من يموتون . ولكنها توشك أن تهوى من الأعالى إلى حضيض اليأس لأنها كانت على قيد الحياة .

إنها حين بلغت باب مخدعها تطلعت إليه وقلبها فى عينيها .. وقد

وقف وكأنه أسير جمال عينيها المتطلعتين .. ثم قال بهدوء : « طاب ليلك يا صغيرتى الحبيبة .. يا حبى الوحيد ! » . وقبل أن تفطن إلى ما حدث كانت فى حجرتها وحدها وقد أغلق الباب . ولم يتقبل عقلها أنها قد نبذت « فى الجليد » كما عبرت مرة مازحة .. وتذكرت قولها له : « قد يكون من السهل للمرء أن يعود إلى البيت خلال النوافذ المهشمة والأبواب التى بدون رتاج » .. لقد ودت أن تعود إليه ، فإذا لم يكن بوسعه أن يتزوج منها فليتخذها عشيقة . وكانت من السذاجة بحيث لا تدرك ما يتضمنه هذا ، ولكنها كانت تعرف أن الرجل إذا تزوج من امرأة فإنهما ينامان معاً ، وكانت تشعر بأن الألفة البالغة ، ومع « تايسون » بالذات أروع مما كانت عليه قبلاته. فلقد جرفها إلى سماء خاصة ، ولكن أبوابها لم تكن مفتوحة لها ..

لقد كانت تعرف أن ما كانت تقترحه سيعتبر إثماً فى نظر الناس ، ومع ذلك فإنها كانت توقن بأن لا إثم هناك، وأن كل شىء فى حبها لتايسون صواب ومكتمل ومقدس .. وما كان يرفض الزواج منها إلا لأنه كان يحبها حباً يجعله يأبى أن تتعذب وتعانى .. ومع ذلك فلو أنها أسلمت له نفسها ، كما ينبغى لها ، لكانا كياناً واحداً ، ولكان حبهما أعظم من الدنيا بأسرها ، ولتذكرته لعاشت .

واقتصرت على ثوب للنوم شفاف مثير ، ووقفت برهة تتأمل النجوم خلال النافذة وهى تهتف : « أجعله يتقبلنى يا إلهى ،ويتخذنى

زوجة ولو بالحب دون النسب . إنك لتعلم أنني خلقت له ، وقد نكون معاً يوماً ما « كما كتبت علينا منذ مولدنا » .

وكانت تتوقع ألا يستجيب الله لها ، وأنه قد يرى أن من الإثم أن يتحابا دون أن تبارك الكنيسة حبهما .. ولكنها قالت لنفسها إن الحب أعظم من أى شىء .. إنه الحياة .. وإن هى جوهر الحياة التى خلقها الله .

وسارت للباب الذى يفصل بين المخدعين .. وأدارت مقبضه .. ولكنه كان موصداً .

* * *

الفصل الخامس

هبطت فانيا درجات السلم والساعة تدق العاشرة . وكانت ترتدى ثوب السفر الأزرق الغالى الثمن الذى وصلت فيه إلى « ريفيل روبال » ، وقد أدركت – وهى تنظر فى المرآة قبل هبوطها من مخدعها أنها تبدو جد أنيقة وجد جميلة . ولكن صورتها فى المرآة جعلتها أكثر اغتماماً مما كانت . فما جدوى أن تبدو مختلفة عما كانت تشعر؟ .. كأنما ران على كل جسدها هماً كاد يجعلها تهوى إلى الأرض .

لقد ظلت تبكى فى الليلة الماضية حتى أرهقها البكاء ، ولكن إدراكها أن تايسون كان يحبها حال دون أن تتمنى الموت ، فأينما قدر لها أن تكون فى المستقبل ، سيكون هو الآخر فى مكان ما من العالم ، وألا تمالك أن تشعر بأن القدر الذى جمع بينهما فى ظروف غريبة ، قد يسمح فى النهاية بأن يجمعهما « ولو لفترة قصيرة

كانت تتمتم لنفسها وهى تبكى : « إننى أحبه .. أحبه ! » ، وما كانت تدرى تفسيراً للوعة التى انتابتها وهى تدرك أنه فى الجانب الآخر من الباب الموصد .. كان يحبها هو الآخر .

وبدا لها أن من غير الطبيعى أن يوصد بابه دونها وهى التى تتمنى أن تذهب إليه لأنها أحبته .. كان كل منهما يود السعادة للآخر ، ولا يسبب لها السعادة إلا أن يكونا معاً . وداخلها الأمل مع انبثاق

الفجر فى أنها ستتناول الفطور معه كما اعتادت كل صباح منذ مجيئها إلى « ريفيل رويال » .. وحاولت أن تحسب هل يتسع لها الوقت ليتريضا على جواديهما ، ثم لتبدل ثيابها قبل مجيء المركبة التى ستقلها.. ولكن مسز بريجز أحضرت لها طعام الفطور فى حجرتها .. مما أنبأ فانيا بأن تايسون لم يكن راغباً فى رؤيتها حتى لحظة تأهبها للرحيل .

وساءلت نفسها هل يعدل عن رأيه ويقرر ألا يسافر معها كما وعدها ويرسلها وحدها ، وربما فى صحبة هوكينز .. ما كان أقسى لوعة عليها من أن ترحل وتتركه وراءها .

وخرج تايسون وهى فى منتصف السلم ، ووقف ينتظرها فى البهو . وأدركت — حتى دون أن تنظر إليه — أنه كان مهموماً تعيساً مثلها ، وكأن خطوط الهم حفرت على وجهه حفراً .

وودت أن تحيطه بذراعيها فتواسيه وتسرى عنه ، وتمنيه بأن الحواجز التى كانت تفصل بينهما قد تزول يوماً ، فينعمان بالحب كما يصبوان ..

ولما بلغت البهو ، تقدمت من تايسون ، فى حين ظل هو واقفاً .. وتطلع كل منهما إلى الآخر . ما كان بحاجة إلى أن يخبرها بما كان يعانى . ولقد أدركت أنه رأى ما أحدثه البكاء حول عينيها ، وكيف كانت شفتاها ترتجفان .

وكأنه كان يقسر نفسه على أن يسألها : « هل حزمت أمتعتك ؟ » .. فقالت : « أجل .. كل حقائبى معدة .. ولكنها تحتاج

إلى إغلاقها » . فقال : « سأغلقها أنا » . وودت — بدافع من نفسها — أن تعوقه عن الصعود ليبقى معها ، ولكنه — وهى تمد يدها تمنعه — تحول يصعد الدرجات ، وهو يحملق أمامه دون أن يلتفت إليها . فراقبته حتى غاب عن بصرها ، وفجأة ، سمعت صوت عجلات مركبة وحوافر جياد كأنه قعقعة يوم القيامة . وخالت أنها لن تحتمل النظر إليها ، فالتفتت لترى بريجز يندفع للبهو ، وسألها : « أهناك ما أحضره لك يا مس فانيا ؟ » .

ولمحته ينظر بدهشة نحو الباب الرئيسى خلفها ، وسمعت وقع خطوات ، فظنت أن حوذى الفندق قد جاء ليساعدها فى حمل الأمتعة . وتحولت إليه ، وإذا بها تجمد فجأة فى مكانها .. فلم يكن القادم هو سوى مانفريد ديل ، فى أفخم مظهر ، وقد ارتدى معطفاً للركوب وقبعة عالية . وودت أن تهرب من أمامه ، ولكن قدميها سمرتا إلى الأرض ، واحتبست أنفاسها فى صدرها . ولذهولها أبصرته يخرج مسدساً من جيب .

وقال : « عند أول صوت لاجتذاب الانتباه ، سأطلق النار على هذا العجوز الأحمق . ولا أحسبك تريدين أن تثقلى ضميرك بهذا » . وصوب المسدس إلى الشيخ بريجز . فخنقت فانيا صرخة قفزت إلى حلقها . وعاد يقول : « هيا معى ! » .

ولم تكد تعى ما كان يحدث حين أمسك بها من رسغها وجرها خلال الباب الخارجى ، وهبط بها درجات السلم . ورأت أمامها

ولم تكد تعي ماكان يحدث حين أمسك بها من رسغها وجرها خلال الباب الخارجي ، وهبط بها درجات السلم ..

المركبة ذات اللونين الأصفر والأسود ، وعرفت فيها المركبة التى زار فيها مانفريد ديل بيت عمها . ولكن الوقت لم يسعفها للنظر والتفكير ، فقد حملها وألقى بها فى المركبة بجوار رجل يمسك أعنة الخيل الأربعة . وبدأت المركبة تتحرك ، فقفز مانفريد إلى جوارها . ولقد جرى كل هذا بسرعة ، حتى أن الصرخة لم تنطلق من بين شفتيها إلا والمركبة تتحول إلى الجسر المقام فوق البحيرة .

وقال بخشونة : « ادخرى أنفاسك .. فلن يسمعك أحد . وإذا كان ابن عمى – ابن الحرام – يعتزم الانطلاق خلفك ، فسيجد من المستحيل أن يلحق بنا » .. فشهقت قائلة : « كيف تجرؤ .. كيف تجاسرت على أن تعاملنى هكذا ؟ » .

– إذا تصرفت بهذه الطريقة المنكرة مع أناس ليس من حقك أن تعاشريهم فتوقعى أن تتلقى ما تستحقين .

– كان ابن عمك سيقلنى إلى بيت أهلى اليوم .. فما كانت ثمة ضرورة لعملك المفاجئ .

– لو أنك ذهبت لأهلك لكان لزاماً أن أتجشم عناء زيارتك لأبرم تدابير أخرى لزواجنا . لهذا قررت أن أتولى الأمر بنفسى .

فسألته مستنكرة : « ما الذى تعنيه .. بهذا ؟ » .

– أعنى أننى أعتزم عقد قرانى بك فوراً .

فنظرت إليه فى جزع ، بينما استطرد : « خلال ساعة من الزمن » .

— إنى أرفض .. أرفض تماماً أن أتزوج منك الآن أو فى أى وقت .

— إنك سعيدة الحظ لرغبتى فى أن أجعل منك امرأة شريفة برغم إقامتك وحيدة ودون رقيب فى ذلك البيت المهدم .

— لقد تصرف ابن عمك كسيد مهذب ، وهو ما لم تفعله إذ انتزعنى بالقوة الوحشية دون أن تكترث لمشاعرى .

— سأعوضه عن ذلك عندما تصبحين زوجتى .

— هذا ما لا أعتزم أن يحدث .. قد تجرنى إلى المذبح جراً ، ولكنى أقسم بأنك لن تجبرنى على النطق بالكلمات التى تجعلك زوجاً شرعياً لى .

واجتذبت أنفاسها وقالت : « إننى أكرهك .. أتفهم ؟.. أكرهك ، ولن يضطرنى شىء فى الدنيا إلى .. الزواج منك » .

فضحك مانفريد وقال : « إنك مقذعة .. وسأتسلى بأن أجعلك أكثر انصياعاً إذا ما أصبحت زوجتى » . فصاحت بحنق : « إنك لا تعبأ بى ، وإنما بأموالى .. لقد سمعتك خلسة تقول ذلك لابن عمك حين جئت إلى ريفيل رويال » .

— إذن فقد كنت تسترقين السمع ؟.. لا أعتقد أنك علمت بشىء لم تكونى تعرفينه .. وما أظنك كنت تتوقعين أن أتزوجك لو لم تكونى مالكة لثروة هائلة .

— لكم أكرهك وأمقتك .. إنك كل ما هو وضيع ومشين !.

إنما يدهشنى أن يتقبلك أى مجتمع كعضو منه !

— ستجدين هناك منافع عظيمة وكثيرة فى الزواج منى .

— أحسبك تقصد أن أباك استولى على لقب رفيع ليس من حقه ولا يمت إليه قانوناً .

— هنا تخطئين .. فهو حقه شرعاً ، فإن عمى نسى عن طيب خاطر أن يعقد قرانه على المرأة التى استهوته ، وهذا ما لن يحدث بالنسبة لك قطعاً .

— لقد أخبرتك بأننى لن أتزوج منك .

— أؤكد لك أن لا خيار لك فى ذلك .

كان فى صوته عزم وإصرار جعلاها ترتجف . وساءلت نفسها : كيف يجبرها على إعلان القبول أمام أى قس » وشعرت بخوف يومض فى أعماقها بشر وخطر يهددانها . ولم ترتح إذ رأت نفسها محاصرة بالحوذى وبمانفريد . وأحست بأنه لا سبيل أمامها بأن تبتعد عنهما . وكان مانفريد كبير القامة ، وأدركت أن بوسعه أن يقهرها بسهولة ، فلا أمل لها فى الفرار .

وتجاوزت المركبة القرية ، وانطلقت على طريق خطر لفانيا أنه يؤدى إلى لندن . وكانت الخيل مسرعة جداً ، فتعذر عليها قراءة شىء من معالم الطريق ، وتملكها اليأس لأن كل لحظة كانت تزيدها بعداً عن تايسون . وكانت مفاجأة انتزاعها من بيته قد شلت تفكيرها . ولكن الهدوء ما لبث أن عاودها ، فأخذت تفكر بمزيد من الجلاء .

وكانت المركبة قد ازدادت بها بعداً . فاتخذت لهجة تغـريه بالتصالح ، وقالت : « أرجوك يا مستر ديل .. ردني إلى بيت عمي . وأوقن أن هذا سيسهل مناقشة الأمر لكلينا » .

— لن يسهله لي .. لقد قررت عقد قراني عليك دون زينـات واحتفـالات .. وبمجرد أن نتزوج سأفكر في تفسير طيب إذا ما تساءل أحد .

— لقد أخبرتك بأنني .. لن أتزوج منك .. لا سيا بهذه العجلة غير اللائقة .

— ما أدراني بألا ضرورة لذلك .. أعني أنك أقمت وحيدة مع ابن عمي لا أثق به .. من المؤكد أنه من الرجولة بحيث استغل هذا .

كان من العسير أن تفهم ابتسامته والغمز واللمز .. ولكن لهجته جعلتها تصبح في استنكار : « كيف تقول .. شيئاً كهذا ؟.. إن ابن عمك مثال لطيبة الخلق واللطف .. ويختلف عنك في كل شيء يمكن تصوره ! » .

فصاح بحدة : « إذا تحدثت لي بهذه اللهجة فسأعنف بك .. ما كان تايسون في كل حياتي بقدوة لي ، ولا بمثـال لما ينبغي أن أكون . ولن أحتمل هذا من المرأة التي ستحمل اسمي.. ثقي من هذا ! » .

كانت حدته بالغة ، حتى أدركت ثانيا أنها مسته في الصميم . وخطر لها أن هذا من الأسباب التي جعلته حساساً إزاء تمكن أبيه من الفوز بلقب كان من حق تايسون . وقد شاءت أن تمعن في أن

تخزه ، فقالت : « بوسعي أن أؤكد لك أن ابن عمك لا يقدم على إجبار أية امرأة على أن تفعل شيئاً ضد رغبتها » .

قال متجهماً : « ما كان ينبغي أن يكون لابن عمي شأن بك .؟ إنني أتبين الآن أنه اتصل بك بمحض المصادفة .. عندما اضطررت — مصادفة أيضاً — لأن تقضي الليلة بذلك النزل » .

فسألته : « كيف علمت بهذا ؟ » .. قال : « جمعت أطراف القصة كلها فعرفت — دون أن تخبريني — ما حدث .. حاول « بلاكلي » الزنيم أن يختطفك ، فأنقذك تايسون منه ، وخطر له أن يستأثر لنفسه بوريثة غنية » .

— هذا شيء لم يفكر فيه .. لقد رجوته .. توسلت إليه أن يأخذني بعيداً لمجرد أنني .. لم أكن راغبة .. في الزواج منك .

فضحك قائلا : « كان مختطفاً لا يسعى لمكسب !.. أعتقد أن هذه خطيئة ما كانت في قائمة ابن عمي المتظاهر بالتقوى أن يرتكبها.. هذا يطمئنني إلى أنني — على الأقل — لن أكون أباً لابن حرام لشخص وإن كان من أسرتي » .

فهتفت بصوت خافت : « كيف تجسر .. على أن تتكلم .. هكذا ؟ » .

وأطبقت أصابعها متوترة ، وأدركت أنها لو وجدت خنجراً في يدها، لطعنته به . وما شعرت في طيلة عمرها بفيض من الكراهية، والازدراء كالذي غمرها إزاء الرجل المجاور لها ، بكل أقواله

الساخرة وكل ما رأته من قذارة وخسة . وفطنت فجأة إلى أن الحوذى قد سمع كل كلمة من حديثهما . وعجبت كيف يبيح رجل يعتبر نفسه مهذباً أن يقول مثل هذه الأمور المشينة أمام خادم له ؟

قال مانفريد بعد برهة ، وكأنما كان يفكر فيما قالت : « هناك شيء واضح جداً .. بوسعنا أن نبدأ حياتنا الزوجية بدون أى تظاهر يا عزيزتى إيفانجلين .. فبمجرد أن أتولى معالجة أموالك ، سيكون بوسعك فعل ما يروق لك دون أن أحفل ، ولو شئت أن تعودى إلى الحظيرة غير المريحة التى أنقذتك منها لتوى .. لن أضع أية عراقيل فى طريقك » .

وشعرت فانيا بكلمات تحقير تتواثب فى حلقها لولا أن طرأت لها فكرة مفاجئة ، فقالت فى تؤدة : « هب أننى أقدم لك ثروتى .. بدون نفسى ؟.. ألا يحل هذا المشكلة بالنسبة لنا معاً ؟ » .

وتأمل مانفريد اقتراحها برهة ، ثم قال : « إننى لم أر وصية أبيك ، ولكنى أعتقد أن المستحيل قانونياً للوصى عليك أن يسلم أموالك إلا لزوجك » .. فأحست فانيا بالأمل الضئيل يخبو .. فلقد هداها ذكاؤها إلى أنه يقول الصدق . فإن عمها كان الوصى على ثروة أبيها مع محامى أبيها ما لم تتزوج ، فينتقل كل ما تملكه إلى زوجها بحكم القانون ... وسرحت ببصرها لترى الخيل تطوى الطريق ، والغبار يتطاير خلفهم لفرط سرعتها ..

* * *

سادهما الصمت مسافة ميل ، ثم قال مانفريد للحوذى : « القرية القادمة يا بيل .. سترى الكنيسة إلى اليسار » . والتفتت إليه فانيا فى دهشة فقال : « إنها الكنيسة التى سنعقد فيها قراننا » . فقالت : « لقد أخبرتك .. بأننى لن أتزوج منك » .

ولمحت وهى تتكلم برج كنيسة خلال الأشجار أمامهم .. وحاولت أن تفكر فيما تفعل والقنوط يتملكها .. كان من المؤكد أن أى قس لن يعقد زواجها مهما يكن ما يقوله مانفريد ، إذا ما قالت إنها تجبر علىّ الزواج برغم إرادتها .. لو قالت : « إننى قاصر ، والوصى على ليس هنا » ..

وكانت المركبة تقترب باطراد من الكنيسة ، فرأتها قائمة على مسافة قصيرة من الطريق .

كان هناك درب مسقوف على طريق فرعى يفضى إلى مدخل لمبنى ذى درجات رمادية .. وقالت فى تحد وصوت جهير : « إننى لن أتزوج منك ! » . فارتسمت على شفتيه ابتسامة ملتوية ، شعرت عندما قابلته لأول مرة أنها تنذر بنوع من الشر والخبث . وقال : « فى هذه الحال سأطلق النار على القس بطريقة تصيبه بالشلل بقية عمره » .

وانبعثت منها حشرجة تنم عن استبشاع ، بينما استطرد هو : « لن أقتله ، فهذا يؤدى إلى عواقب غير سارة ، ولكنى سأعجزه ، ثم ننتقل إلى الكنيسة التالية ، فالتى تليها ، حتى نترك وراءنا سلسلة

من المعاناة ومن القسس الجرحى . أهذا ما تبغين ؟.. ستكون هذه طريقة مبتكرة للزواج ! » .

فصاحت : « إنك شيطان !.. كيف يتسنى لك أن تفكر فى كل ما هو قاس رهيب ؟ » .

— الأمر فى يدك .. تزوجينى بهدوء ، فلا يحدث ما يشوه سعادة يوم زفافك !

وتطلعت إليه فى ذعر ، والمركبة تهدئ من سرعتها لتقف بجوار الدرب المسقوف . فهبط مانفريد . ولما جمدت فانيا فى مكانها مد يده وقال بسخرية : « هيا يا عروسى الفاتنة .. أننى أدرك مدى تلهفك مثلى لأن نصبح زوجين .. نفساً واحدة كما تقول الكنيسة » .

كانت تفكر يائسة فى طريقة للهرب ، إذا وجدت طريقة الخلاص من الموقف المقيت . وودت أن تظن أنه كان يهوش إذ قال إنه سيطلق الرصاص على القس إذا رفضت هى الزواج منه ، ولكن شعوراً ممضاً كان يوحى إليها بأنه لن يتورع عن شىء يمتلك ثروتها .

وهتفت فى نفسها : « لماذا تركت لى مالا يا أبت ؟.. لماذا قدر لى أن أكون فريسة لرجل مثل هذا ؟ » .. بينما صاح بصبر نافد : « هيا ! » .

وأدركت أنه سيجرها عنوة إذا رفضت ، برغم ما فى هذا من مهانة غير لائقة . ولم يكن أمامها مفر . وقد بدت كل طريق وسيلة مسدودة أمامها ، فتركته يساعدها على الهبوط من المركبة ، فى إباء

غير بدنى » ولكنه عقلى . وسرحت ببصرها نحو القرية الصغيرة التى كانت خلف الكنيسة ، وتساءلت أما من مجال للهرب ؟.. كانت تعلم أن مانفريد خليق بأن يمنعها بالقوة ، وأنها لو صرخت لما تورع عن أن يسد فمها بيده . وأحست بأنها لن تطيق أن يلمسها ، وأن كل عصب فيها يعافه .. وشعرت بأن قدميها تحملانها بحركات آلية على الدرب المفضى للكنيسة .

وتوقفت وقالت هامسة : « أرجوك .. لا تفعل هذا .. ليس الآن .. يجب أن نبحث الأمر . سأحاول .. أن أوافق على ما تشاء .. ولكن لا تغصبنى على الزواج منك .. الآن » .

فأجاب : « إنك هربت منى مرة .. ولا أعتزم أن تكرريها » .

كان فى صوته إصرار أخبرها بألا جدوى لمزيد من التوسل برغم ما فى هذا من مهانة .

وهتفت فى قلبها : « يا إلهى .. ساعدنى ! » .. ووجدت نفسها — وهما يسيران نحو الكنيسة — تردد اسم الرجل الذى أحبته : « تايسون ! » .. وكأنما كان كل جسمها يردد الاسم مراراً كأنه تعويذة .. ولكنها رأت رجل الدين يرتدى مسوحه ويسير نحو درجات المذبح فى انتظارهما .

* * *

هبط « تايسون » درجات السلم حاملا إحدى حقائب فانيا الصغيرة ، فوضعها وصاح ببريجز إذ رآه واقفاً محملقاً :

« أين هوكينز ؟.. أريد أن يساعدنى لحمل المتاع ؟

فصاح بريجز والرعب فى صوته : « أواه ، أيها السيد .. ما علمت قط بشىء كهذا .. لقد هدد بأن يطلق النار على ! » ..

فتساءل تايسون : « عما تتحدث ؟ »

— السيد مانفريد يا سيدى .. جر الآنسة فانيا هابطاً بها الدرجات لو لم أر هذا بعينى ما صدقت أن يحدث !

وأسرع يهبط السلم ، وإذ ذاك ظهر هوكينز خلال الباب الأمامى قائلا : « هذا صحيح يا سيدى .. السيد الذى زارك منذ أيام فى المركبة ذات اللونين الأصفر والأسود . جذب الآنسة فانيا على الدرجات ، ثم حملها وطوح بها فى المركبة وقفز إلى جوارها ! » .. وقال بريجز : « قال : إنها لو أصدرت صوتاً فسيرمى بالنار هذا العجوز الأحمق » .

والتقط تايسون قبعته وسوطه ، وصاح : « هل سالامانكا مجهز بالخارج ؟ » .

— أجل .. وفيتوريا .. فقد أحضرتهما كما طلبت .

ولم يرد تايسون ، بل هبط وقفز إلى صهوة « سالامانكا » ، واندفع متقدماً هوكينز الذى اعتلى جواده ، وانطلق خلفه .. وتايسون يرى أنه من حسن الحظ أن قرر أن يصحب هوكينز فى مرافقة فانيا لمنزل أسرتها .. وقد أدرك أن من المستحيل أن يجلس بجوار فانيا دون أن يحتويها بين ذراعيه ويقبلها كما فعل مساء الأمس . وكان قد أدرك حين صعدا لمخدعهما بالأمس أنها لحظة الفراق .. وإذا كان قد

أحب فانيا قبل أن يقبلها ، فقد كان يدرك أن قولها إن كلا للآخر لم يكن مغالطة وكلمات . ولولا أنه راض نفسه أعواماً على ضبط النفس لقال لها : إنه ما من شىء سيمنعه عن الزواج منها مهما يكن ما يحدث . كان يوقن من ن فانيا تريده ، وأنها وهبته قلبها ، وكانت مستعدة لأن تهبه كل ما يطلب . ولكنه قسر نفسه على أن يتذكر صغر سنها ، وعدم إلمامها بالدنيا ، وعلى أن يتبين أن واجبه يقتضيه أن يصونها من كل شىء يؤذيها أو يفسدها لأنه يحبها .

وعندما ذهب إلى مخدعه ، كان كل كيانه ينضح بلوعة لا تطاق ، فقد كانت فانيا جد قريبة منه ، ولكنه أبعدها عن ذهنه قدر الإمكان ، وأوصد الباب الذى يصل بين الحجرتين لأنه أراد أن ينسى أى شىء — حتى شرفه وأمانته — قد يدفعه إليها ، وإن كان بدنه يصبو إليها بطريقة تجتاح كل عقل وكل حكمة .

وقال مناجياً نفسه وهو يتطلع للنجوم التى قبلها تحتها : « إننى أبتغيها !.. أشتهيها ! » ووقف فى النافذة نصف الليل ، يطل على الجمال الشاعرى لضوء القمر على البحيرة ، والحديقة الناعسة « فلا يرى سوى وجه فانيا والسنين الخاوية التى سيعيشها بدونها .

وبدا له أنه من شبه المستحيل أن يكون قد وقع تماماً فى غرامها ولما تنقض أيام على تركه الجيش . لقد ظل ثلاث عشرة سنة عسكرياً بين رجال تناثروا فى البلاد وقد لا يراهم ثانية . لم يكن له هم خلال السنوات الثمانى منها إلا أن يفوز فى الحرب ، وأن يرى أكبر عدد

من رجاله على قيد الحياة ، ولقد دهمته لحظات من الحرمان والجوع والخوف ، كما عرف أوقات من الزمالة والضحك والانتصار .

لقد كان يتساءل عند وصوله إلى « دوفر » عما سيجده فى إنجلترا .. كان واثقاً من أنه سيجد تغييرات كثيرة ، ولكن ما لم يكن يتوقعه أن يقع فى الهوى وتغالبه مشاعر وإحساسات تختلف عن أى شيء عرفه من قبل .. لا لأن فانيا كانت بارعة الجمال ، ولا لأنه حرم من صحبة النساء زمناً طويلا ، وإنما لأنه أدرك أن بينهما نوعاً من التجاذب لا مفر منه . ولعلها كانت تصغره بسنوات عدة ، وربما كان تعليمهما وتربيتهما مختلفين ، وربما لأنها كانت غنية وهو فقير . ولكن ما من شك فى أن كلا منهما كان للآخر ، وأن روحيهما تعارفتا منذ لحظة اللقاء الأولى ..

وقال لنفسه : « إنها لى .. لى تماماً - إننى أحبها ، بل أعبدها ، لا للمرة الأولى وإنما طيلة أجيال عديدة » . وخطر له أنهما لهذا لابد أن يلتقيا ثانية ولا مناص لأحدهما من الآخر .

قد تكون هذه فلسفة ، ولكن قسطاً من كيانه الإنسانى كان يهفو إلى فانيا . وكان يصبو إلى أن يقبلها ، وأن يستأثر بها ، وأن يتعاشرا وينجبا أطفالا .. كأن لاسمها تردد موسيقى فى نفسها ، وكأن جمال الكون فى وجهها وعينيها .

ولكن « قد لا يعود أى شيء لحاله ثانية .

* * *

وأدرك وهو يلاحق المركبة ذات اللونين الأصفر والأسود أن نقمته على مانفريد فوق كل سيطرة ، وقد لا يعدم أن يقتله إذا لحق به .

كان كل منهما يكره الآخر فى حداثتهما ، ولقد سمع قصصاً كثيراً عن سلوك مانفريد فى المدرسة مما جعله يخجل من القرابة بينهما ، كان مانفريد مستأسداً على زملائه حتى أن الصغار منهم يخافونه . وكان فظاً مع الخدم ، فكان « تايسون » يرى الخير فى ألا يكثر من لقائه ، فمع وجود نزاع بين أسرتيهما ، فإنه كان يتغاضى عنه إكراماً لأمه

ولكم كان أبوه يقول : إن قلة لقائه بأخيه « جورج » كان أفضل ، ولكن تايسون أدرك برهافة حسه أن أمه كانت تشعر أن تباعد الأخوين كان ذنبها . والواقع أن « جورج دبل » كان أشبه بابنه ، شخصية غير مرضية ، حتى لقد رأى « تايسون » أنه ما كانت لتقوم علاقة بين أبيه وأخيه مهما كان زواجه . ومع ذلك فقد عقد تايسون عزمه على ألا يزيد العلاقات سوءاً ، لأن أمه كان تحمل نفسها ذنب القطيعة . ولكنه فى غمرة الغضب الآن ، رأى أن مانفريد يجب أن يعانى سوء تصرفه مع فانيا .

وكانا قد مضيا حوالى الساعة يلاحقان المركبة ، حين صاح هوكينز من خلفه : « أتظن أن مس فانيا أخذت إلى لندن ؟ » .. فأجابه تايسون : « أظن ذلك وإن لم أجد سبباً يعزز ظنى » . فقد

بدا له أن مانفريد قد يأخذ فانيا إلى والديه ، ويصر على عقد قرانهما بأسرع ما يمكن ، فقد رجح أن لا يعرض ابن عمه نفسه لأن تفقد الفتاة منه مرة أخرى ، ومن ثم يأخذها إلى « قصر ويلينجديل » بلندن . وكان هناك مقر للصيد فى لايسيسترشاير ، وآخر فى سكوتلند . وكان يعز على عقله أن يصدق أن كل هذه المقار سلبت منه ، دون أن يتصدى لهذه القرصنة ، ولكن ماذا كان يملك أن يفعل أكثر مما فعل المحامى ؟.. لعل « فانيا » كانت على صواب فى أنه سيجد الدليل على زواج والديه شرعياً فى « ريفيل وبال » ، ولكن ما كان القضاء يملك له شيئاً ما لم يتم ذلك .

وزاد من سرعة جواده ، حتى ساءل هوكينز نفسه : إلى متى يحتمل « فيتوريا » اللحاق به . فقد كان « سالامانكا » ذا قوة طاغية ، رآها فى ميدان القتال . وكان هوكينز يرى أنه لا يحتمل أن يكون فى إنجلترا جواد يفوق سرعة رحلتهما ، وأنهما لن يلبثا أن يلحقا بالمركبة لو كانا يمضيان فى الطريق الصحيح .

وكان محض حظ أن كانت المركبة حيث أراد مانفريد أن تكون عند باب « البيت » ، ولم يكن هوكينز قد استغرق خمس دقائق ليسرج جواديهما .. وفجأة صاح : « انظر يا سيدى ! » .

وأشار إلى برج الكنيسة أمامهما ، فنظر « تايسون » وإذا المركبة ذات اللونين الأصفر والأسود تجنح للوقوف أمام الكنيسة .. وصاح « عليك بالحوذى يا هوكينز ! » . وحث جواده حتى وقف به خلف

وزاد من سرعة جواده ، حتى ساءل هوكينز نفسه : إلى متى يحتمل « فيتوريا » اللحاق به ..

المركبة مباشرة . وقفز عن « سالامانكا » وهو يلمح هوكيتز ينقض على الحوذى فى المركبة .. ولم ينتظر ليرى ما حدث ، بل انطلق إلى باب الكنيسة . وسمع وهو يدفعه : « هل تقبل يا مانفريد ...؟ » ، فصرخ : « أوقف هذا الزواج ! » .

وبدا صوته مجلجلا فى الكنيسة . وصاحت فانيا وهو يتجه صوبها : « احترس .. معه مسدس ! » .

وجذب مانفريد المسدس من جيبه . وإذ لمحه القس وهو يقف على درجة تعلو موقف العروسين ، أغلق كتابه وطوح به بقوة فى وجه مانفريد . فترنح لحظة استطاع خلالها تايسون أن يصل إليه . وانطلقت رصاصة أصابت أحد الأعمدة ، فلكمه « تايسون » فى فكه بقوة . وترنح مانفريد ثم انهار إلى الأرض ، فتبعه تايسون مصوباً لكمة إلى أنفه ، شعر معها أن عظام مانفريد تتهشم ، قبل أن يستلق فاقد الحركة .

وبينما تأمله « تايسون » ليتأكد من فقدانه الوعى ، صاحت فانيا وهى تلق بنفسها على صدره : « إنك جئت .. كنت أصلى لله كى تنقذنى » . فضمها تايسون بقوة ، ونظر إلى القس وقال : « شكراً لك » .. وأردف فى دهشة : « يا لرحمة السماء ! .. أهو أنت أيها القس ؟ » . فابتسم الكاهن قائلا : « أراك على عهدك أيها الميجر — تجيد اللكم بقبضتيك ! » .

— شكراً .. ولكن تصرفك الأول هو الذى أتاح لى فرصة الفوز .

ورفعت فانيا رأسها فى دهشة وهى ترمق الكاهن ، فقال تايسون : « هذا هو رجل الدين أوجسطس هندرسون .. كان رجل الدين فى فرقتى العسكرية » .

وقال القس : « إننى أمكث هنا مع أخى ربما أعثر على مركز .. ولقد شعرت بأن فى هذا القران ما يريب » . ونظر للرجل المسجى على الأرض وقال : « ولكن لديه تصريح خاص من أسقف كنتربورى ، ولم يكن هناك مناص ! » .. فقال تايسون : « وأين ذلك التصريح ؟ »

قال القس : « فى مكتب الكنيسة » .. فقال تايسون لفانيا : « انتظرينى هنا يا غالية ! » .

ولم يغب سوى ثوان ثم عاد والتصريح فى يده وقال للقس : « لقد بدلت كلمات قليلة » .. وأراها التصريح ، كان الاسم المكتوب « مانفريد ديل نجل لورد بلينجديل » ، فبدله تايسون « مانفريد » إلى « تايسون » ، ونجل إلى « حفيد » .

وساد الصمت لحظة ، ثم قال تايسون : « أظن هذا مشروعاً أيها القس لتعقد قرانى على فتاة أحبها كل الحب ، وأوقن بأنها تحبنى »

فأجاب رجل الدين : « لا يسرنى شىء قدر هذا يا ميجر » .

وصدرت عن فانيا صرخة زاخرة بالسعادة ، وقالت : « أأنت جاد ؟ » .

قال : « إن واجبي أن أعنى بك .. ولا أهمية لكل ما عدا ذلك » ،

وأمسك بيده .. ولم تعد هناك حاجة لمزيد من الكلمات .

فوقفا أمام القس الذى ابتسم لها وبدأ يعقد مراسم القران .

* * *

وبدا لفانيا وهما يخرجان من الكنيسة أن الشمس أكثر إشراقاً ، وأن الطيور تغرد بأصوات ملائكية تحدث فى قلبها صدى موسيقياً . وكانت تشد قبضتها على يد تايسون والقس يسير بجوارهما إلى الدرب الممتد أمام الكنيسة .. فلما بلغوا مدخله ، رأوا هوكينز يجلس على مقعد حوذى المركبة ممسكاً بأعنة الخيل ، بينما كان « سالامانكا » و « فيتوريا » يرعيان الحشائش على جانب الطريق . ولمحوا جسد الحوذى مسنداً إلى أحد القبور . فساروا إلى المركبة .. كانت أصابع هوكينز دامية ، وإحدى عينيه متورمة ، ولكنه كان يبتسم مزهواً بالانتصار ، وإذ لمح هوكينز رجل الدين صاح فى عجب : « ليرحمنى الله .. أليس هذا كاهناً ؟ » .. فأجابه القس : بلى يا هوكينز .. أما نصحتك من قبل بأن تخفف وطأتك » .. فقال : « كان أكثر نشاطاً مما توقعت يا سيدى .. ولكنى غلبته فى النهاية » .

فقال تايسون لفانيا : « لابد أن أوضح لك يا عزيزتى .. كان رجل الدين مدرباً كفئاً للملاكمة عندما لم يكن فى متناولنا غيره » .

قال القس : « لن أتحدث عن زوجك .. فإنك قد رأيته بنفسك » .

فأجابته : « إننى أعتقد أنه بارع فى كل شىء » . فشد تايسون على أصابعها وقال : « أعتقد أن خير طريقة لتنقلك للبيت هى أن أقلك فى المركبة ويتولى هوكينز جوادينا » .

وكان صوته ضاحكاً وهو يقول لرجل الدين : « عندما يتمكن ابن عمى من فهم ما تقول ، فأرجو أن تخبره بأن مركبته وجياده ستسلم إلى الفندق .. على حسابه » . وبسط القس يده إليه ، فقال له : «أرجو أن تأذن لنا بأن نستمتع بشهر عسل ، ثم تعال وزرنا فى « ريفيل رويال » ، وسيرشدك أخوك إلى موقعه » .

وأخذ « تايسون » أعنة الجياد من هوكينز ، وانطلق بالمركبة وفانيا إلى جواره . وما إن ابتعدت المركبة عن أعين الواقفين عند الكنيسة ، حتى تحركت فانيا ملتصقة به وقالت بصوت خفيض : « أصبحنا متزوجين.. أصبحنا زوجين حقاً .. فأنا زوجتك وأنت.. زوجى ! » .

قال تايسون : « وآمل .. ألا تندمى لهذا » . فقالت : « هل تتصور هذا محتملا ؟ أواه يا أعز الناس ، لقد ظللت أناديك فى سرى .. فلما وصلت إلى الكنيسة .. أيقنت أن الله أرسلك لتنقذنى » .

قال فى وجوم : « قد يكون أمامنا صعاب كثيرة .. ولا أظن أن عمك ميسر جداً لما حدث ، ولكننا سنعمل على إقناعه بأنه لا يملك أن يفعل شيئاً » .

قالت : « هل تظن .. أنه .. سيحاول أن يفرقنا ؟ » .

قال تايسون : « حال ابن عمى ستقضى وقتاً قبل أن يتمكن من الاتصال بعمك ، وقد يرى هذا أن من الحكمة تجنب إثارة فضيحة » .

قالت فانيا : « ما أظننى أحتمل .. أن أفقدك ثانية .. كنت بالغة الشقاء ليلة أمس .. ولا أستطيع تصور أن أواصل العيش .. بدونك » .

والتفتت إليه قائلة : « إننى أحبك يا تايسون .. أحبك بدرجة من المستحيل التعبير عنها بكلمات » .. فقال : « لن تحتاجى إلى كلمات عندما نصل إلى البيت يا حبيبتى » .

* * *

الفصل التاسع

اجتاز تايسون وفانيا الردهة المفضية من قاعة المائدة ، وذراعه تحيط بها ، فشعرت كأنها تهيم على سحب السعادة . وقالت : « ما تذوقت طعاماً ألذ من هذا ولا أروع ! » .

قال : « هذا ما شعرت به يا حبيبتى » .. فأطلقت ضحكة قصيرة وقالت : « ماذا تناولنا ؟ » .

فضحك هو الآخر وقال : « لا أدرى .. كل ما أعرفه أنه ما تمتعت بمثله لأننى كنت أتطلع إليك » .

قالت : « وماذا أرتدى ؟ » .. قال : « لم أكن أرى سوى وجهك .. لا سبيل لمقاومته » .

— كنت آمل .. أن تعجب بثوبى !

— إننى أعجب به وأود رؤية ما بداخله .. هل أذهلك ما أقول؟

— كلا .. ولكنه أخجلنى !

— إننى أزداد إعجاباً بك عندما تخجلين .

— إنه خجل عجيب .. فيه قشعريرة تسرى فى عمودى الفقرى.

قبل تايسون جبينها وهما يمضيان إلى قاعة الجلوس .. ولم تكن

الشموع مضاءة ، والنور الوحيد ينساب من السماء خارج النافذة .. فرمق فانيا وضمها إلى صدره وقال : « ما بدت هذه القاعة بهذه الجاذبية ، وما ضمت القاعة واحدة بجمالك .. وإنى لصادق فيما أقول » .

وزادت ذراعه إحكاماً حولها . وتأمل وجهها وكأنه لا يصدق ما رأى .. ثم سعت شفتاه إلى شفتيها ، فطبعتا قبلة بطيئة ومتسلطة ، فشعر بها تستجيب .. وازداد وجده بها .

وازدادت منه التصاقاً كأنها تريد أن تصبح جزءاً منه .. وكأن الدنيا أصبحت أكثر إشراقاً بما انبعث من أعماقهما .. فهمست : « إننى أحبك يا تايسون — أحبك ! » .

وما لبث تايسون أن جذبها إلى خارج الشرفة ، وهو يقول : « هنا قبلتك مودعاً يا غالية .. وكنت صادقاً فى رغبتى فى أن ترحلى لأننى رأيت هذا أدعى لسعادتك .. ولكن القدر قرر غير ذلك .. ولقد أدركت عندما حلت بينك وبين زواج ابن عمى البغيض ، أنك لى .. وأن من الخطأ أن أدع شيئاً تافهاً كالمال أو كاسمى أن يعترض حبنا » .

وغمغمت فى هناء وهى تريح رأسها على منكبه ، وقالت : « هذا ما كنت أدريه دائماً .. أعنى يا حبيبى إنه لا قيمة لشىء فوق أن كلا منا يحب الآخر ! » .. وقبل شعرها ، فاستطردت : « كنت سعيدة

بالأمس حتى تمنيت أن أموت .. أما الآن ، فأود أن أعيش وأن أحبك بقية عمرنا » .

— هذا ما سنفعله يا جميلتى .. ولكن لا يعلم إلا الله نوع هذه الحياة .

— ستكون رائعة .. زاخرة بالسحر والنشوة .. لوجودنا معاً .

— أرجو أن تقولى هذا بعد سنوات .. كلما نظرت إليك ورأيت أنك أجمل مخلوق .. داخلنى الخوف .. لأننى لن أستطيع أن آتيك بكل ما أريد أن أقدمه لك .. لو ألبستك قوس قزح ، وأحطت عنقك بقلادة من النجوم ، فلن يكون هذا سوى جزء مما يستحقه جمالك .

— إننى أوثر على هذا .. قبلاتك .

ورفعت فمها نحوه ، فرأت لهيب عينيه وفمه ينصبان إليها .

■ ■ ■

كانت الشمعة تتقد عند نهايتها خلف الستارة ولكن الحجرة كانت فى ضوء ذهبى لطيف ، كاف لأن يرى تايسون عينى فانيا وشعرها الذهبى — فسألها : « أما تزالين تحبيننى يا عزيزتى ؟ » .

— أحبك ؟.. إننى أعبدك . أواه ، كيف تركتنى أفارقك .. وأنت تدرى أننا سنشعر .. بشىء كهذا ؟.. إننى لا أدرى كيف أصفه .. كأننى لم أعد كما كنت ، بل جزءاً من أشعة الشمس

والزهور ـ ومن ضوء القمر والنجوم و .. أنت ؟.. كيف أصف تحليقى إلى قلب الشمس .. أو غوصى فى أعماق المحيط ؟.. أواه يا تايسون !.. كيف لم يخبرنى أحد بأن الحب .. بهذه الروعة ؟..

فشدها إليه وقال : « أنت الآن لى يا حبيبة .. ستظلين لصق قلبى حتى أحبك ، وأرعاك ، وأقسم أنك لن تعودى تعيسة ما استطعت ! » .

وجذبت رأسه إليها ، وقبلته هذه المرة .. قبلة بدأت رقيقة على شفتيه .. ثم أحست برعدة فى كيانها ، وتطابقت شفاههما .. وأحست كأن تايسون يحملها إلى قلب الشمس .. وكأن كل جسدها يكتوى بروعة ذلك .. واستلقى ما بقى من ضوء الشمعة على رأسيهما .. على الوسادة .

— يجب أن تستغرقى فى النوم يا غالية ، فقد كان اليوم حافلا لك ، وهناك عمل كثير غداً عندما نستأنف البحث عما تسمينه « كنزاً » .

— إننى أعرف أنه هنا .. فى مكان ما .. ولكن ، لم تعد هناك حاجة للعجلة الآن .. ولم يعد عندى ذلك الشعور المستيئس بأنك .. ستبعدنى من هنا قبل العثور على .. ثروتك .

— سيشق علىّ أن أنظر فى غير عينيك يا غالية .. ولكن لم تعد هناك عجلة كما تقولين .

ومس جبينها بشفتيه قبل أن يستطرد : « أنا الآخر كنت تعيساً وبائساً مساء أمس .. كيف كنت أحدس أن أربعاً وعشرين ساعة ستغير كل شىء وتغدين لى » .

— إننى كلى لك .. ولقد جال بخاطرى كيف كان والدى يغتبط لأننا أقدمنا مجازفين على زواجنا » وأنك اتبعت ما كان إيعازاً نفسياً دون شك لأن تتزوج منى .

— إنه أكثر من ذلك .. إنها رغبة لا تقاوم ، ولم أعد أتغلب عليها .

وسادت فترة صمت ، ثم قالت فى استحياء : « وأظن أمك كانت تسعد .. لوجودنا معاً فى مخدعها » .

— إننى واثق من هذا .. ومن أنها كانت ستحب هذا .

— ما أخبرتك قط بأننى قابلتها فى المنام منذ ليلة .. كنت سأخبرك بهذا عندما هبطت درجات السلم .. والواقع أننى كنت أوشك عندما تذكر بريجز القضبات .. واهتدينا إلى الكنز رقم ٢ .

— حدثينى عن هذا الحلم الآن .

— حلمت بأن أمك تجلس فى هذه الحجرة .. كان بوسعى أن أراها بجلاء ، وكنت واثقة من أنها أمك ، لأنها كانت تشبهك إلى حد ما ، وكان شعرها بلون شعرك .. وكان لها وجه كثير الملاحة ،

ذو طابع روحي، وكانت تجلس وهي تكتب بقلم من ريش طائر فى دفتر صغير جداً .

ولم يتكلم تاوسون بينما استطردت فانيا : « وأذكر أننى فى المنام عجبت لصغر الدفتر بالمقارنة إلى الريشة » .. فشعرت بتاوسون يجمد فى مكانه وقال بصوت غريب : « دفتر صغير جداً » .

— هذا ما رأيته فى منامى .

فصاح بصوت بدا مرتفعاً : « دفتر يوميات !.. كانت أمى تسجل يومياتها دائماً .. ما فكرت فى هذا حتى هذه اللحظة !.. ترى أين احتفظت بيومياتها .. أما رأيت يوميات فى هذه الحجرة ؟ » .

— كان الدفتر صغيراً جداً ، ولعله يكون .. هناك !

وأشارت بإصبعها ، فنظر تاوسون عبر الحجرة . فإذا على جانبي المدفأة خزانتان يثبتهما إلى الجدار قمتان من الصدف .. وكانت الأرفف الثلاثة السفلى فى كل منهما مليئة بدفاتر صغيرة مجلدة بالجلد، وعلى الأرفف التى تعلوها تحف جميلة من الخزف .. فشرع تاوسون فى مبارحة السرير .. وصاحت فانيا : « لقد ظننتها دواوين شعر ، وانتويت فحصها فيما بعد .. فقد كانت هناك أشياء أخرى كثيرة لأفعلها ... »

والتقط تاوسون ثوب الحجرة « الروب » فارتداه ، وأشعل شمعة جديدة من تلك التى كادت تحتضر ، وحملها فوضعها على رف

المدفأة الرخامى .. ووقف لحظة يتأمل الدفاتر وفانيا تراقبه وتدعو الله أن تكون الدفاتر يوميات أمه، وأن تتضمن المعلومات التى كان يتوق إليها .

ومد يداً واجفة — وكأنه كان خائفاً — فسحب الدفتر الأول ، وفتحه وفانيا ممسكة أنفاسها ، ثم قال بصوت بدا غريباً عنه : « هذه يوميات أمى .. وهذا الدفتر يحمل تاريخ سنة ١٧٧٦ م .. عندما كانت أمى فى الخامسة عشرة » .

وأعاد الدفتر ، وسحب آخر ، فقلب صفحاته بحذر بالغ .. وقالت فانيا : « فى أية سنة هرب أبوك وأمك ؟ » .. فأجاب : « سنة ١٧٨٢ م .. وأوقن أن هذا كان فى الصيف » .

وقلب صفحة أخرى ، ثم صدرت عنه صيحة استغراب دعت فانيا لأن تسرع بالقول : « اقرأ لى يا تايسون .. لأعرف ما الذى عثرت عليه » .

فعاد إلى جوار الفراش بتؤدة ، وجلس على الحشية ، فى حين سحبت فانيا الستار ليتوفر الضوء ، فقال : « أنصتى لهذا » .. ولمحت أن الخط كان دقيقاً وأنيقاً .. واستطرد هو قائلا : « هذه الصفحة تحمل : كاليه فى ١٦ يونيو » .. وشرع يقرأ :

« وصلنا إلى هنا منذ يومين ، ولكن هذه أول فرصة تسنح لأسجل الأحداث الباهرة والمثيرة التى حدثت لى .. فى صباح يوم

وقف لحظة يتأمل الدفاتر وفانيا تراقبه وتدعو الله أن تكون الدفاتر يوميات أمه ،
وأن تتضمن المعلومات التى كان يتوق إليها ..

الثلاثاء ، استيقظت فى وقت مبكر جداً ، وتسللت من البيت وأبى وأمى لا يزالان نائمين . وكنت قد حزمت أمتعتى فى حقيبتى الجلدية فى الليلة السالفة . ومع أننى وضعت فيها أشياء قليلة .. لأن هيوبرت العزيز قال : إنه سيبتاع لى كل ما أبغى إذا ما وصلنا إلى فرنسا فإنها كانت ثقيلة . ولكنى استطعت حملها عبر الحديقة إلى حيث كان هيوبرت فى انتظارى بين الشجيرات بمنأى من أبصار البيت .

« واحتوانى بين ذراعيه وقبلنى ، فأدركت أن لا قيمة لشىء إلا أن نكون معاً ، وإن توقعت أن يغضب أبى حين يكتشف مغادرتى البيت . وقد أسرعنا إلى الطريق العام ، حيث وجدنا مركبة خفيفة يجرها أربعة جياد . وما إن انطلقنا حتى ضمنى هيوبرت ، فلم أعد أخشى شيئاً ، ولا ندمت على ما فعلت .

« وبدا أن الأميال إلى دوفر تنطوى بسرعة ، ولم أسأل هيوبرت ـ حتى بلغنا المدينة ـ أين سيعقد قراننا ، ولكنه قال وهو يبتسم : إن هذا سر . وكنت فى غاية السعادة لأن أترك كل شىء ليديه القديرتين . ولكنى دهشت حين لم تتوقف بنا المركبة إلا بجوار رصيف الميناء . فهبطنا منها ، وأمر هيوبرت بنقل أمتعتنا إلى سفينة ، وانتقلنا بزورق إلى المرفأ . وإذ ذاك تبينت إلى أين كنا ذاهبين . كانت هناك سفينة شراعية فخمة راسية أمامنا ، وتمكنت من قراءة اسمها : « فورميدابل » .. الهائلة . وكان من المثير أن أصعد إليها ،

وإن وجدت أن تسلق سلم الحبال شاق . وعندما اعتلينا سطحها ، قدمني هيوبرت إلى ربانها . وكان سيداً مهذباً يدعى « إدوارد داوسن » ، وكان صديقاً حميماً جداً له .

« وهبطنا إلى ما وجدت أنها قمرة كبيرة ومريحة . فقال داوسن : « أرى أنه كلما أجريت مراسم القران . كان هذا أفضل » .. فنظرت إلى هيوبرت في عجب « فقال : « هذا صواب وقانوني يا أعز الناس » فالربان مخول بأن يعقد قران أي من ركابه ، وقد وجدت أن زواجنا بهذه الطريقة مبتكر ، وأنه وسيلة لكتمان السر إلى أن تبلغي سن الرشد » . ثم نظر للربان فقال هذا سيثبت قرانك يا سيدتي في دفتر أحوال السفينة ، وستوقعين باسمك تحت توقيعي ، وبهذا يكون زواجك شرعياً تماماً . وسيستغرق إتمام الدفتر حوالي عام أو أكثر ، ثم أسلمه إلى الأميرالية لضمه إلى دفاتر كل سفن الأسطول الأخرى .

« وابتسم لي ولهيوبرت وأردف : « وبعد ذلك من المشكوك إلى حد كبير أن يطلع عليه أحد . وسيكون سركما محفوظاً لسنوات طويلة » إن لم يكن إلى الأبد » .. وتناول كتاب الصلوات .. وهكذا تم زواجنا » .

* * *

كف تايسون عن القراءة وتطلع إلى فانيا ، فخيل إليها لحظة أنه لا يبصرها ، بل شع على وجهه تعبير عن الفوز والارتياح . وكرر : « هكذا تم زواجنا ! .. هذا كل ما كنت أبغي العثور عليه .. وما كنت أوقن أنه حدث .. الآن سيجلى عن اسم أمي كل شيء ، وسيضطر عمي إلى الاعتذار في ذلة مهينة » .

وأغلق اليوميات وقال : « سنقرأ ما تبقى غداً .. لقد وفقنا إلى كل ما يهم » .

ـ أواه يا تايسون .. إنني مسرورة .. مغتبطة جداً .

ووقف ، وهم بأن يستعد للعودة للفراش . هتفت فانيا : « ألم يخطر ببالك أن أمك إذا كانت كتبت عن زواجها ، فإنها قمينة بأن تكون قد كتبت فيما بعد عن شيء عظيم الأهمية .. كالمخبأ الذي أودعه أبوك ثروته في البيت ؟ » .

وهتف تايسون : « طبعاً ! .. لابد أنها سجلت هذا » .

ـ في أية سنة حدث ذلك ؟

ـ لقد مات أبي في أواخر سنة ١٨٠٩ ، وقد أخبرني تشيستنجون أن الإيعاز الداخلي بأن البنك سيغلق أبوابه وأتاه في أوائل هذا العام .

ـ إذن أسرع في البحث في هذا التاريخ .. ستجد دفتره على الجانب الآخر للمدفأة .

وعبر تايسون الحجرة ، وكانت الشمعة المضاءة لا تزال على

رف المدفأة فنقلهـا للجانب الأيمن . وأخـذ يتفقد الدفاتر حتى بلغ آخرها تقريباً ، فجذبه ولكنه لم يحاول أن يفتحه ، بل حمل الشـمعة وسار إلى فانيا ، وقال : « أتثبتين يا عزيزتى أنك التى اهتديت إلى كنزى ؟ » .

— هذا ما تمنيت أن أفعل .. ابحث بسرعة .. وستساعدنا أمك كما ساعدتنا من قبل .

فنظر إليها .. كان ما وجده هو كنزه الأكبر ، ولكنه وضع الشمعة ، وقلب الدفتر الذى فى يده ، ثم قال بعد لحظة : « ما من شىء فى يناير .. ولا فبراير » .. وتوقف عن صفحة اليوم الأخير من هذا الشهر ، وما لبث أن هتف : « ها هوذا ! » .

كان الخط باهتاً فانحنى نحو الضوء وشرع يقرأ :

« أخبرنى هيوبرت صباح اليوم بأن لديه هاجساً لا يخطئ بأن مصرف المقاطعة الجنوبية وكانتربورى مقبل على محنة . فسألته عما دعاه لهذا الظن ، فقال : « لا أدرى .. ولكن هذا يشغل بالى » .. ثم أردف : « أرى أن أذهب إلى كانتربورى » .. وإنى لأدرك ألا جدوى من مناقشة هواجسه وصرفه عنها .. لذلك عنيت بأن يلتف بثياب ثقيلة لأن اليوم شديد البرودة .. ووعدنى بأنه لن يطيل الغياب ... » .

وقال تايسون : « هذا كل ما كتبته فى ذلك اليوم » .. ثم قلب الصفحة ، وهتف فسألته عما هناك ، فقرأ :

« أصيب هيوبرت العزيز بنزلة برد منذ عاد من كانتربورى مساء أمس ، لهذا لم أستطع أن أغضب منه لطول غيابه . وقد دخل البيت بطريقة غامضة ، وهو يحمل حقيبة جلدية هائلة لم أكن رأيتها من قبل فسألته : « ماذا لديك فيها ؟ » .. وكان جوابه : « إنه شىء أود أن أحمله للطابق الثانى » . فأخذها منه بريجز ، وإذ ذاك قال له : « ضعها فى مخدع السيدة » .. فظننت أنه أحضر لى هدية .. فاهتززت طرباً حين أمسك بيدى وصعدنا السلم معاً .

« وضع بريجز الحقيبة على أرض حجرتى ، وسأله : « أأفتحها يا سيدى ؟ » .. فأجاب هيوبرت : « كلا . شكراً لك .. احمل زجاجة نبيذ إلى قاعة الجلوس ، فأنا منهك » .. حتى إذا انصرف بريجز ، دهشت إذ سار هيوبرت إلى الباب وأوصده .

وسألته : « ما الذى أتيتنى به ؟ » ..

وأجاب : « ثروة يا زوجتى الغالية » .

« وظننته يمزح ، ولكنه فتح الحقيبة فرأيتها مليئة بالنقود .. بأوراق مالية من فئة ٢٠ جنيهاً وفئة ١٠٠ جنيه ، وقدر كبير من الجنيهات الذهبية . وصحت : « لماذا فكرت فى إحضار كل هذا للبيت ؟ » .. قال : « لأننى أظنه هنا أكثر أمناً مما هو فى المصرف » .

« – ولكن ، أين تراك ستودعه ؟.. إن الاحتفاظ بنقود كهذه فى البيت خطر .

« – سيكون بمأمن وسأكون يا عزيزتى وإياك حارسين عليه معاً .

« لم أدر ما كان يعنيه حتى خلع سترته ، وشرع برفع الغطاء عن السرير . وما كان غير هيوبرت ليفكر فى مخبأ غريب غير عادى كهذا » فجلست .. وأخذت أضحك وأضحك » .

انقضت لحظة من الصمت ، ثم تساءلت فانيا : « ماذا كانت تعنى ؟.. إننى لا أفهم » . فوقف تايسون قائلا : « أنا أفهم .. وأصارحك بأننى أكاد أضحك بدورى .. فبينما كنا ننبش فى أرجاء البيت ، ونبحث خلف الكتب حتى نغدو كمنظفين للمداخن لفرط الاتساخ ، كنت أنت تنامين يا غالية على نقود تكفى لرفاهيتنا بقية العمر ، بل وما كنت أدرى أننى ورثت كل ما كان يقتنى جدى » .

جلست فانيا فى الفراش ، وحملقت فيه قائلة : « أتعنى .. أتظن .. ؟ »

قال : « سألقى نظرة سريعة ، ثم ننام » . وسار إلى نهاية الفراش ، فنزع الجزء الملحق بالسرير والموشى بالزخارف ، ثم رفع الحشية الأولى – وكانت من ريش النعام – فالتى تحتها – وكانت من صوف الغنم – ثم كانت هناك حشية تغوص فى القاع الخشبى للفراش . واحتاجت لكل ما فى تايسون من قوة كى يرفع أحد أركانها . وكانت فانيا قد تركت الفراش ووقفت إلى جواره حاملة عنه الشمعة الموقدة .

وإذ رفع تايسون كساء الحشية ، اقتربت رأساهما ليشاهدا ما هناك . فإذا ضوء الشمعة ينعكس على شىء لامع .. كانت عملات متألقة ، وبجانبها حزم من النقود الورقية . وقالت فانيا بصوت مثقل بالدهشة : « إنها المنقود .. إن الكنز هنا حقاً ! » .

وأعاد تايسون الحشية إلى وضعها الأصلى وقال : « إنه هنا منذ عدد كبير من السنين .. وسيبقى هنا حتى الغد ، فعودى إلى الفراش يا غالية ، وسأحدثك عن قيمته لى » .

واندست فانيا فى الفراش ، وخلع تايسون ثوب الحجرة « الروب » ، وأطفأ الشمعة ، ثم صعد إلى الفراش ، واحتواها بين ذراعيه . وهتفت فانيا : « أواه يا عزيزى .. إنك ظفرت !.. اهتديت إلى الكنز ، وأصبح ملكك .. الآن لم يعد لدينا ما نحمل همه ثانية » ..

– إن الكنز الحقيقى المهم بين ذراعى .. لقد أدركت الليلة « حين أخبرتنى بأنك تحبيننى وبرهنت على ذلك بما يقطع كل شك ، بأنى أسعد رجل فى العالم حظاً » .

– هذا ما أود أن تعتقده يا تايسون .

– إننى أعرف هذا موقناً يا زوجتى الصغيرة المثالية ، وسأنفق ما بقى من حياتى فى إقناعك بأنك أهم عندى من أى شىء فى الدنيا بأسرها .

– الآن وقد أصبح بوسعك إثبات أنك لورد ويلينجديل ، فلن

يحاول .. عمى ليونيل أن يطعن بأن زواجنا غير شرعى .. استناداً إلى أننى قاصر » .

— سنعرف كذلك من أين تأتينا قوتنا فى الوجبة التالية .. وسنستطيع أن نكافئ الزوجين بريجز على ولائهما . وأن نعيد للبيت مجده السابق .

— ما أروع هذا يا تايسون .. أن نفعل كل هذه الأمور .. لكم أنا مفعمة بالعرفان .. بالشكر البالغ .

— كل الآخرين غير مهمين إلى جانبك يا حبيبتى .. إننى أحبك بقدر لا أستطيع معه أن أفكر فى شىء آخر .

وراح يقبلها وهو يتحدث .. وإذ لمستها يده شعرت بوقدة تسرى فى جسدها ، وكأنما رفعها تايسون إلى حرارة الشمس ، وأحست كأن جسمها يهتز استجابة لعناقه ، وبأذنيها تصغيان لموسيقى لحب طاغية تشملهما .. وكأنها تغريد الملائكة .. وكأن روحها تلتحم بروحه فى أغنية عرفان لأن الله استجاب لدعواتها .. فإن الله هو الذى أنقذها من الزواج بمانفريد ديل ، ومن أن يختطفها سير نيفيل وهو الذى أرسل إليها تايسون كفارس من السماء لينقذها .. وعاهدت نفسها ألا تكف عن الشكر له :

وهتفت متهدجة الصوت : « لكم أحبك يا تايسون .. لكم أحبك ! » .

وسيطر تايسون على عواطفه بقوة خارقة وقال : « يجب أن أدعك تنامين يا حبيبتى ! » .

— كيف نبدد .. شيئاً رائعاً .. لحظة كهذه فى النوم ؟.. إننى أحبك يا تايسون .. أحبك ، وأحب كل ما انتهى بنا إلى خير .. إننى زوجتك .. وإننا عثرنا على كنزك .. والأهم من هذا .. أنك تحبنى !

— ثقى من هذا كل الثقة يا حبيبتى الغالية .. وسأثبت ذلك مرة بعد مرة ما دمنا على قيد الحياة .

وازداد صوته عمقاً وهو يتكلم .. وعادت شفتاه تسعيان إلى شفتيها فى إصرار وسيطرة .. فإذا حرارتهما تزيدان النيران فى كيانها تأججاً .

قالت : « إننى أحبك يا تايسون .. أحبك أيها العزيز .. أحبك » .

فقال : « أسلميني نفسك » .

قالت : « إننى ملك يديك .. كل ملكك » .

كان هذا هو الكنز الذى سعيا إليه .. كنز الحب الذى كان أكثر سيطرة ، وأكثر طغياناً وأكثر قيمة من أى شىء آخر فى الكون .

* * *

روايــات كتابى
إصـــدار جـــديد

عزيزى القارى ..

فى الكتاب السابق قدمت لك العدد الأول من السلسلة الجديدة من سلاسل (كتابى) وهى سلسلة (روايات كتابى) التى تقدم لك أروع الروايات العالمية المعاصرة أو الحديثة ـ بخلاف سلسلة (مطبوعات كتابى) التى تقدم لك ترجمة كاملة أمينة للكلاسيكيات القديمة من شوامخ الكتب العالمية .

وقد قرأت فى الكتاب السابق رواية «المفتون» ، من مؤلفات الروائية البريطانية العالمية المعاصرة «باربرة كارتلاند» التى قدمتها لقراء العربية لأول مرة ، رغم أنها ألفت حتى الآن أكثر من ثلاثمائة رواية ، ترجمت إلى شتى لغات العالم الحية ، بحيث تعد أكثر مؤلفى العالم المعاصر شهرة وحظوة بأكبر عدد من القراء : (إذ بيع من رواياتها مائتا مليون نسخة فى كافة البلاد) .

وفى هذا الكتاب أقدم لك رواية أخرى من مؤلفات هذه الروائية الشهيرة التى تخصصت فى تأليف الروايات ذات الطابع «الرومانسى» الذى طال حنين القراء إليه ، فى شتى أنحاء العالم ، بعد أن زهد القراء فى القصص ذات الطابع «الواقعى» أو القصص المنتمية إلى المذهب «الطبيعى» .. ألخ . وقد كتبت هذه الرواية التى بين يديك عام ١٩٧٨ . ومن حقك أن أزيدك معرفة بهذه المؤلفة الفذة : فهى قد ولدت عام ١٩٠٢ ، وقد نشرت روايتها الأولى فى سن ٢١ فأعيد طبعها خمس مرات ، وقد حطمت الرقم القياسى فى غزارة الانتاج عام ١٩٧٥ حيث ألفت ٢٣ رواية فى ذلك العام وحده ، ثم ٢٠ رواية فى عام ٧٦ ، يليها ٢١ رواية فى عام ٧٧ ، ثم ٢٣ رواية فى عام ٧٨ ، و ٢٤ رواية فى عام ٧٩ .. ألخ .

حلمى مراد